الحضارة المصرية

تأليف

العلامة الحكيم

غوستاف لوبون

عرّبه من الافرنسية

م . صادق رستم

محرر بجريدة البلاغ

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بمصر

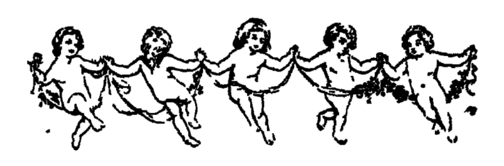
الى حضرات الكتاب والقراء !

قد عزمنا بعونه تعالى على متابعة نشر كل ما تعمُّ فائدتهُ وتلذُّ مطالعتهُ من المؤلفات الأدبية والاجتماعية والعلمية والتاريخية والفكاهية والروايات والقصص وغير ذلك بعنوان :—

سلسلة المطبوعات العصرية

وذلك بالاتفاق مع بُلغاء الكُتَّاب والمؤلفين . وسنبذل كل ما في وسعنا في سبيل مرضاتهم ، وعرض عرائِس أفكارهم على القرَّاء مجلوَّةً في حلل الإجادة والإتقان ؟

الياس انطون الياس



الحضارة المصرية

تأليف

العلامة الحكيم

غوستاف لوبون

عربه من الافرنسية

م. صادق رستم

محرر بجريدة البلاغ

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية بمصر

بشارع علوي بمصر رقم ٥

كلمة اهداء

الى صاحب الدولة زى الرئاستين

العلامة (لوبون) من نوادر المؤلفين الذين حببوا الى فقيد العلم والادب شقيقك المرحوم فتحي باشا زغلول . فقدمه الى الناطقين بالضاد وعرفهم بفضله فيما ترجمه من تواليفه . و (كتاب الحضارة المصرية القديمة) من خيرة الكتب التي تقف قارئها على مجد مصر القديمة . فالى أبي مصر الحديثة ارفع اذن هذا الكتاب . وبمناسبة ذكرى المرحوم شقيقه الخالد الذكر والاثر اهدي بضاعتي القليلة جامعاً بذلك بين خلتين : مد الصلة بين مجد الماضي ومجد الحال . والاستقبال ففي كل شؤوننا بنوة الحال للماضي وابوته للمستقبل . وتجديد ذكرى للأخوة مقدسة ، مولاي اول من يقدسها ويرعاها ، رعاه الله وصانه طويلاً موفقاً كل التوفيق في خدمة البلاد ؟

م . صادق رستم

محرر بجريدة البلاغ



وصلى الله على جميع النبيين

كتاب (الحضارة المصرية) هو الثالث من كتب مجلد (الحضارات الاولى) للعلامة لوبون . (فالمقدمة) التي عربناها من اشهر وطبعتها المطبعة السلفية شملت كتابين . وحضارة مصر تضمنها الكتاب الثالث الموجود الساعة بين يدي القارىء . ومن الحظ الحسن ان تولى حضرة صاحب المطبعة العصرية اخراجه للناس آية في النظافة والدقة والاتقان ككل مطبوعاته التي اشتهر بها .

ويرى الناظر في كتابنا هذا ان مؤلفه الفاضل قرأ قبل ان يكتب جميع ما دون عن مصر من اقدم العصور الى عصره ، وحقق وفحص ونقد من تقدموه في بعض الاحيان ، ثم اطال النظر فيما حصله جملة ووسمه بميسمه الخاص وشرع في تطبيق مذهب النشوء والارتقاء مفسراً به تلك الحضارة القديمة الباهرة المقطوعة النظير . واذا كان علامتنا قد قسا في بعض احكامه فله رأيه وحكمه نحترمهما ولا نحب أن نتعرض لهما هنا . وانما نقول ان ما استجد من المستكشفات والآثار وبخاصة ما اقيم من الثرى حديثاً بمقبرة توت عنخ آمون قد يحمل علامتنا يوماً على تنقيح بعض احكامه القاسية . (1)

وكان في الأصل الفرنسي الكثير من الصور تحلي متنه ، غير اننا آثرنا ان لا يكون في المنقول الى العربية الا المهم من تلك الصور لاعانة المطلع . اما التعريب فلم نلزم فيه اسلوباً خاصاً وانما جرينا وراء المؤلف جهد الطاقة فاذا ارتفع لحقنا به ما استطعنا واذا توسط جاريناه . كل هذا مع الحرص على ان يكون التعريب قريب التناول من مختلف الطبقات ، وهلنا بلغنا ما قصدنا اليه جل المرام ؟

١٩٢١ م . صادق رستم

ملحوظة (١) هذه الآثار واوصافها من دون الحكم الفني عليها قد اعتزمنا تفصيله في المستقبل القريب كما أشرنا في أواخر المكتبات

الحضارة المصرية القديمة

الفصل الاول

البيئة والجنس

(١) البيئة

قال هيرودوت . « مصر هبة من النيل » . والعلم الحديث يقره على ذلك ، بل يزيد في بسطة ما قال . فالنيل اوجد كل ما في مصر وحدده . من الارض الى الحاصلات ، ومن الانواع الحيوانية الى اعمال الناس ، ومن الاخلاق الى النظم السياسية والاجتماعية . ولا يزال هذا النيل الى يومنا هذا ماضياً في عمله الذي لولاه ما كان ، فاذا حدث ووقع ما يغير مجراه فمصير مصر الزوال الحتم ، فتختفي تحت رمال الصحراء ويندرج الوادي المتهور في كفنها الاصفر ، وتمحى اقدم آثار الحضارات الانسانية

اقتطع النيل مصره من جسم الصحراء ، فليست هي في الحقيقة الا واحة طويلة يبلغ طولها ما يزيد على مئتي فرسخ تقليل في عرض يختلف من كيلو متر الى عشرين ، اما الذات المتلئة الشكل فعطيمة الخصب لم يقتطعها النيل من الصحراء وانما اقتطعها من البحر فجاء بها ذرة فذرة في مئات من القرون من قلب افريقيا الخفيه . فهي من الطمي الذي حملته مياه النيل و ... عدم وجود المد في البحر الابيض المتوسط على تراكمه و... يتفرق كما يحصل في صب ... الانهر التي تصب في المحيط

وهذا ... الذي يحمله ... فعل آخر في زيادة رفعة ... . ويقدر الارتفاع بنحو ١٣٢ مليمتراً في كل قرن . ومن شأن هذا

الارتفاع ايضاً انه جعل من مصر المسكونة قطعة من الارض قليلة التحديب، يحدها في قمتها مجرى النهر، اما في اسفل القاعدتين من سلسلتي الجبال اللتين تحدان الوادي، سلسلة ليبيا غرباً وسلسلة العرب شرقاً، فالارض تنزل بانحدار، واكثر الاراضي انخفاضاً ما كان بعيداً عن النيل، والمنخفض منها اول ما يتناوله الفيضان بالري. وكثير من الاراضي مما يلي الضفتين مرتفع لا يبلغه الماء الا اذا رفع بالوسائل الصناعية

ويبتدىء فيضان النيل في الانقلاب الصيفي ويبلغ معظم ارتفاعه في الاعتدال الخريفي، ففي هذا الوقت تنغمر الأراضي الواطئة قبل غيرها بالماء الذي تسرب اليها بالرشح، اما الاراضى المرتفعة فترى منداة وبها بعض المناقع. وتمتلىء الاقنية وتتناول الجزر الصغيرة حاجتها من الماء بالوسائل الصناعية وجميعها أولية عتيقة كالشادوف الذي يديره رجل واحد وكالنورية (الساقيــة) وهي عبارة عن عجلة يديرها ثور وقد كانت هذه الآلات هي التي استخدمها الاسرائيليون العبيد وشوهدت صورها على أقدم الآثار المصرية

واذا ما انقضى الاعتدال الخريفي أخذ الماء في الانحسار، فيلقى البذار ثم تكون الحاصلات في فبراير ومارس وابريل.

وعند ما ينحسر النيل عن الاراضي المغمورة بماءه يترك عليها ذلك الطمي الاسود، وهو أقوى الاسمدة غير منازع، فيمده الزراع على الارض بسطاً كما نفعل نحن في الاسمدة اذ نبسطها على الأراضي العالية التي لم يصلها الفيضان. وتكون ارض مصر بعد انحسار الماء رطبة وغاية فى الخصب بحيث لا تتطلب شيئاً من العمل الشاق بل قلما احتاجت الى الحرث العميق لأن البذار الذي يلقى على وجه الطين لا يلبث ان ينغرس بحكم ثقله، ثم يأتي بعد ذلك بحاصل اهر جعل من مصر قديماً حرائب روما في الأقوات

وبعد الحصاد يكون دور الجفاف فيهب هواء الجنوب حاراً عيلا مدة خمسين يوماً (ايام الخماسين) وتسوبه الرمال والأتربة فتغطى الطبيعة بغبار سحابي وتحترق الخضرة وتجف الأرض وتتشقق، ويأخذ الناس طائف من الكسل العام

ثم يهب هواء الشمال في اول يونيو ويضطرب ماء النيل ويتدفق فى اول لاه

ضارب لونها الى الخضرة ، ثم يضرب الى الحمرة بضعة ايام ، ثم يبدو البلل على القيعان ثم يعلوها النشع فيكون البشير بالفيضان ، فتجري في عروق مصر حياة مجددة .

ليس في وادي النيل فصول على النحو الذي نعرفه . لأن السنة تقسم الى ثلاثة ادوار تعين بحركات النهر . دور الفيضان ودور الزرع ودور الجفاف . ويختلف مرأى البلاد في كل دور . وهذا ما وصفه الفاتح عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب اذ قال له في كتابه (فبينما هي يا امير المؤمنين درة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زبرجدة خضراء . فتعالى الله الفعال لما يشاء)

وقد عزا المصريون القدماء الى النيل نفسه انتظام فيضانه فألَّهوه وقالوا انهُ حياة مصر وثروتها . ولكن اتضح اليوم ان الفيضان نتيجة الامطار الغزيرة التي تهطل حوالي شهر مارس في اواسط افريقيـة حيث منابع النهر وتبعث الى مصر بالخير والنماء . وليس من الصواب القول بأن وادي النيل محروم المطر ، فانه يكثر في بعض الاحيان بجهات من الدلتا ، ولكن كلما تقدم المرء في الوجه القبلي قل المطر وندر . فلولا الفيضان لحل بمصر المحل

واذا كان على النيل المعول الاول في حياة مصر الاّ انه لايستغنى عن اليـد البشرية تعينه على اكساب مصر الخصوبة . ففيضانه في بعض السنين طغيان يطغى على الأراضي ويجرف الابنية ويهلك الناس والحيوان بالغرق . وتحاريقه في بعض سنين اخرى يضر بالأرض ولا يكسبها شيئًا من الخصب . لهذا عولج النهر باقامة الجسور واحتفار الاقنيـة التي توزع الماء بالقسط على مختلف الأراضي ، وانشئت الخزانات لاختزان الماء اذا زاد لحين قلة ماء النهر واشتداد الحاجة اليه في الاراضي العاليـة . وهذا عمل آخر هو مكافحة السافي من رمل الصحراء . وقد رأينا من اول تاريخ مصر ان هذه الاعمال كلها كانت تجري بنظام لا يختلف عن نظام اليوم . وان الاجناس التي استعمرت مصر عرفت كيف تنتفع بهذا الوادي الممتاز . وان اعمال الري الاولى في نهر النيل كانت اول مبين على ظهور اقدم الحضارات على وجه المسكونة

ومما ميز به الانتفاع بخيرات مصر الطبيعي عن غيره من وجوه الانتفاع ، ان الاعمال التي جرت على النيل جرت دائمًا في مجموع مجراه . فوجد الري في ادارته وتوليته

السلطة المركزية الادارية نعني السلطة الملكية . وفي كل وقت جرى فيه ان جزئت هذه السلطة او نقصت بسبب الفتن او العدوان تأثرت البلاد برمتها في امور معاشها وتفشى الضنك والمجاعات ونزلت الضائقة بالغني والفقير على السواء فكانت الملكية المطلقة المستبدة اذن المظهر الوحيد للحكومة الممكنة في مصر . وكانت الوحدة الوطنية الكبرى الأولية التي عرفت في تاريخ الحضارة البشرية . وشوهد في جميع العصور ان شعبها الذي كيفته قرون طويلة بكيف الطاعة في حاجة على الدوام الى نير سيد يحكمه

ولقد كان سكان مصر من اقدم العصور اكثف السكان . وان المرء ليدهش اذا ذكر الجيوش التي جندها سيزوستريس من قطر اذا تدبرناه ومعه بضع واحاته القليلة التي في غربه فلا تبلغ مساحته اكثر من جزء من ستة عشر من مساحة فرنسا. ولكن المدن العديدة كانت قائمة على ضفاف النيل يخطؤها العد من الشلال الى البحر عدا ما بالدلتا من البلاد المنتشرة في جميع الارجاء . ولا ريب في ان خصوبة مصر هي السبب في كثافة السكان . ومواد الغذاء بمصر محدودة كغيرها من امور المعاش بالنيل ولهذا ايضاً ألّهه السكان من القدم وقالوا انه سبب الرفه والحياة فمن كان يلقي في مياهه بجيفة ليلوثها فلا يعد الا مارقاً ليس له من جزاء الا الاعدام

والحبوب بمصر في المرتبة الاولى بين الحاصلات وغلتها وافرة وتليها الخضر والبقول . ولما ثار الاسرائيليون على موسى بسبب ما عانوه من الحرمان في التيه بالصحراء اسفوا على عبوديتهم بمصر ولم يفكروا في غير خضرها التي كانت في متناول كل مخلوق

ومن النباتات المصرية البردى ، وتؤكل سوقه منضجة في الافران . واللوتس الابيض والوردي والازرق ، ومن احد انواعه الفول المصري

وبمصر ايضاً من مزروعات المواد الصناعية القطن والكتان والنيلة وغيرها وببعض جهاتها كروم العنب اما الأشجار العظيمة فقليلة ، ولكن تجود بمصر النخيل واشجار الزيتون . وبمصر من طيور الماء الأوز والبط البري ومالك الحزين

والكركي وغيرها . وبنيلها واقنيتها وبحيراتها اشتات كثيرة من انواع الأسماك

ومن الحيوانات الكثيرة الثيران فالعجل معروف بمصر من اقدم الازمان كحيوان للحمل والجر، وحمر مصر من اقوى الحمر واحسنها في العالم. ويظهر ان الجياد لم تدخل الى مصر الاّ في عهد متأخر فصورها غير موجودة الا في حديث الآثار اما الماعز والكلاب فقد عرفت في جميع الأدوار .

وليس بمصر كثير من الحيوانات المؤذية فيوجد الأسد مثلاً في الوجه القبلي والتمساح في النيل اوسطه واعلاه وهناك بعض انواع من الحيات السامة منها النوع الذي اتخذ شارة للملكية فتزين بصورته العصابة التي تعصب بها جبهة الملك

والثروة المعدنيــة بمصر تكاد تكون معدومة فليس في مصر مناجم . وجبال السلسلتين اللتين تحدانها شرقًا وغربًا غرانيتية من ناحية الجنوب فقط وكانت تتخذ منها الاحجار العظيمة لعمل المسلات والاهرامات التي زينت ضفاف النيل وقامت شاهدة على الأزمان الغابرة هازئة في صلابتها بكرور الايام والليالي . ولكن الذي زاد في تلك الصلابة انما هو جفاف الاقليم وحرارة الشمس فلم تفعل بالحجر عوادي المياه والجليد وسيول الأمطار . وسنتكلم عن تلك الآثار عند ما ندخل في وصف المدن من مثل هليوبوليس التي كانت تعبد فيها الشمس او طيبة ذات المئة من الأبواب او ممفيس مدينة فتاح او حقبتاح التي اشتق منه اليونانيون اسم (ايجبتس)

فرغنا مما قصدنا اليه هنا على عجَل من الدلالة على الأرض وعلى الخيرات التي تناولتها من النيل . وننبه بعد ذلك على ان البيئة في مصر كان لها اعظم أثر معروف في السكان واذا اردنا ان نبين كيف خلقت هذه البيئة للزمنا ان نصعد الى الأدوار الجيولوجية نرى اذ ذاك مصر ارضا منعزلة ليس فيها ساكن . وقد جرى النيل صابراً في واديه اجيالا لا تعد . لى ان كوّن الدلتا من طميه واعد المهد لأول وابهر مدنية عرفها الانسان في الارض

(٢) الجنس

كان المصريون يظنون أنفسهم أصلاء الجنس . وكان في روعهم ان الآلهة أوجدت جنسهم من القدم بوادي النيل و بعد ذلك حكم أولئك الآلهة البلاد وعلموهم ادارة أمر النيل وجغرافيته وسنوا لهم النظم والقوانين فعاش أجداد المصريين تحت رعاية الآلهة سعداء يطلق عليهم اسم (شيسوهور) او خدم (هوروس) وكل ما في مصر من حسن جميل صادر عنهم مباشرة فكان عهدهم عهد بركة وسلام ووفرة شبيه بذلك العصر الذهبي الذي تتخيله معظم الشعوب وتزعم أنه الاصل هم العالم

غير أن مؤرخي اليونان واللاتين لا يقبلون هذه الخرافة فعندهم ان المصريين شعب من جنس افريقي لم يكن أصله بوادي النيل . وان هذا الشعب فرع أتيوبي نزل النهر وتحضر على طول مجراه الادنى

قال ديودور الصقلي : يؤكد الاتيو بيون ان مصر احدى مستعمراتهم وان أرضها مما أتى به النيل وهناك مشابهات بينة بين عرف البلادين وقوانينهما فللملوك لقب الآلهة . والعناية بالجنازات واحدة في القطرين . والكتابة المستعملة باثيو بيا هي هي المستعملة في مصر . ومعرفة الاسرار المقدسة الخاصة بالكهان في مصر كانت كذلك في أتيو بيا . وكان في البلادين مدارس لرجال الدين نظمها واحدة فيهما ولباس الرجال فيهما واحد وقواعد القداسة متشابهة ويلبس ملوك مصر كلباس ملوك أتيو بيا ويحملون نفس شاراتهم. ويذكر الاثيو بيون اعتبارات أخرى كثيرة لتعزيز سلطانهم على مصر والدلالة على أنها كانت احدى مستعمراتهم

نقول ولقد ساد هذا الرأي الاتيو بي وصدقه كثيرون واستمر الى عهد قريب على انه نهاية في الخطأ . ولكن سيادته لم تهدم الا بعد فك الرموز الهيروغليفية في مدة شامبليون كما هو معروف

وقد ظن حتى أوائل القرن التاسع عشر في أوروبا ان قدماء المصريين كانوا زنجا شفاههم غليظة وشعرهم جعد كشعر السود وانهم أتوا من قلب افريقيا وكم عرض كثير من الباحثين في رقبة التشابه الظاهر بين فلاحي مصر الآن وفلاحي العصور.

المنقوشة على الآثار وكان المظنون ان مثال السحنة المصرية الحقيقية قد محتها المخالطات لكثير من الامم الفاتحة

على أنه لدينا كتاب قديم يعزو أصل المصريين الى آسيا وهو كتاب العهد القديم ولكن النظر الحقيقي العلمي التاريخي لا يحسن معه ان يستسلم المرء لما كتب اليونان واللاتين ولما أتت به السير الدينية التي تصلح للكنيسة ولا تصلح لانارة التاريخ

ان قراءة الهيروغليفي والبحوث في أصول اللغات هما اللتان أنارتا المسألة فظهر أن ما ورد في العهد القديم لم يبعد كل البعد عن الصواب فالفروع الثلاثة الكبرى للجنس الابيض، نعني الآريين والساميين والحاميين ، انما انتشروا من هضاب أواسط آسيا وأحاطوا بحوض البحر المتوسط . أما الفرع الآري فذهب شمالاً ودخل اوربا مجتازاً جسر هلاس . وأما الفرع الحامي فنزل جنوبًا واجتاز برزخ السويس وانتشر غربًا حتى المحيط الاطلسي ولم يقفه الا حجاز الصحراء . فأفريقية الحقيقية بسكانها السود لا تبتديء الا من وراء الصحراء الشاسعة التي فصلتها أجيالاً عن الاجناس البيضاء . وما الليبيون والبربر والنوميون ومن اليهم الا شعوب حامية ويغلب ان يكون المصريون اخوانهم ولكن قرب جوارهم من الساميين الاسيويين قرب أسباب المخالطة فظهر المظهر الخارجي لقدماء المصريين وظهرت لغتهم على شبه بين بمظهر الساميين ولغتهم . وفي أصول الاجرومية وجذور اللغة المصرية قرابة بعيدة أيضًا من العبرية ولكن انفصال الفرعين حدث في زمن عريق في القدم وأخذ كل يعمل بوسائله الخاصة فتوطدت اللغة المصرية بسرعة أما الساميون فمضوا في التطور والانقسام فنشأت لهم عدة لغات مختلفة اللهجات

وبقيت اللغة المصرية القديمة التي توطد أمرها من نحو ٥٠٠٠ من السنين قبل المسيح حتى الفتح العربي وكان لها لهجتان فصحى وعامية ثم دخلها الفساد فكانت اللغة القبطية ثم اندثرت هذه أيضًا وحل محلها العربية السامية

الشعب المصري اذن من اصل آسيوي ومن اسرة حامية سامية . وقد نزح الى وادي النيل من زمن بعيد لا يمكنه التصور ولم يغر على الوادي في يوم واحد بل على عدة مرات وبطبقات متعاقبة ولا شبهة في أن أول الوافدين وجدوا على ضفاف النيل

أثاراً ضعيفة نادرة مما ترك أهل افريقية السوداء الذين كانوا لا يصلون الى البحر الا بطريق النيل . الطريق الوحيدة وسط الصحراء

وكانت تلك القبائل السوداء نهاية في الجهل فلم تعرف من أمر سياسة النيل وماءه شيئًا وكثيراً ما حلت بهـا نكبات فيضانه . وهذه القبائل عينها هي التي تركت على أرض مصر آثار العصر الحجري التي لا تزال توجد أحيانًا تحت طبقات الرمال

وعمد المغيرون الاسيويون الى دفع السـود أمامهم او استغرقوهم ولـكن لا بد من وجود مخالطة ضعيفه حدثت بين الطرفين فخرج منها المثال المصري السوي ولا ريب ان امتلاء الشفاه واحمرار البشرة هما في الاعتبار اثار تلك المخالطة بين قليل من الدم الافريقي الاسود والدم الصافي لابناء آسيا

وكلما صعد الانسان مجرى النيل زاد له وضوح الاختـلاط . اما ذلك الاثيوبي الذي جعل منه ديودور الصقلي حدًا للمصري خطأً فانه لم يأخذ عن المصريين المغيرين الا أساليبهم وبقي مع ذلك بدمه الافريقي الخالص . فالحضـارة المصرية الصحيحة تتقدم اذن كلما سار الانسان والنيل من المنبع الى المصب ، عكس ما رسم الـكتاب الاغريق واللاتين

وبديهي انه مضت أزمان وآزمان قبل أن يحول المصريون بجدهم وعملهم وجه الوادي فتتوطد نظمه ومميزاته ، ولـكن الجديد عند قدماء المصريين له أصوله الوشيجة في القديم ، قال (ماسبرو) المصري على وجه عام طويل القامة نحيلها معتدلها عريض الـكتفين ممتلئها ناتيء الوجنة ملتف الذراع عصبيه دقيق اليد طويلها متوسط الخصر جاف الساق اجزاء ركبته وعضلات ساقه ظاهرة بعض الظهور كاغلب أفراد الامم المشاءة ، وقدماه مستطيلتان رفيعتان مفرطحتان عنـد الاطرف من اعتياد السير في حفاء ، اما الرأس فـكبير على الجسم تستحلي فيـه الهدو- وترى في ملامحه أثراً من الحزن ، وجبهة المصري مربعـة قليلة الارتفاع وأنفه قصير مستدير وعيناه كبيرتان وخده أسيل وشفتاه ممتلئتان ولـكنهما غير منلويتين وفـمه به استطالة وعليه تبسمة الاستسلام التي لا تخلو من ألم

وهذه الاوصاف المشتركة بين معظم تماثيل الامبراطوريتين القديمة والوسطى هي

هي بعينها بعد ذلك في جميع العصور فأثار الاسرة الثامنة عشرة وما صنع بعد ذلك بأيدي الاغريق يقل في جمال الصنعة عن أثار الاسرات القديمة ولكنه يحتفظ كل الاحتفاظ بمميزات المثال الاولى

واذا كانت الطبقات العليا في أيامنا هذه قد غيرت من سحنها ومميزاتها ، المزاوجة المتكررة من الاجنبي ، فالفلاح الساذج احتفظ غالباً بشبه أجداده

أما السلف الاول للمصريين وهو الذي كان يعتقد هؤلاء انه شهد العصر الذهبي وحكم الآلهة على الارض فانا نقابله بمثل ما نقابل به أقاصيص العهد القديم . لان المصريين الاوائل مروا بعناء العيش الشاق كما مرت جميع الشعوب الاولية في سبيل اعداد عظمة المدنيات المستقبلة

واذا سألنا فقلنا كم مرّ من القرون على المصريين الاوائل في دور الطفولية والكفاح ، أجابنا المعبد العظيم المجاور لابي الهول ، فهو بناء رائع أقيم من كتل الغرانيت المكدسة تكديساً ويعد بمثابة حلقة بين الآثار الخشنة الساذجة والمنشآت الاولى لفن العمارة الحقيقية

كشف الرمل عن هذا المعبد ماريت باشا فاتضح انه من قبل عهد الاسرة الرابعة وحكم كيوبس صاحب الاهرام الكبيرة بكثير ، ووجدت كتابة نقشت أثناء حكم هذا الملك فيها ان هذا المعبد سيظهر للعيان بعد ان يبقى عدة أجيال مدفوناً في الثرى. والظاهر ان أصله حتى في عهد كيوبس نعني من ٦٠ قرناً مضت ، كان لا يزال مجهولاً فهو اذن أقدم أثر قائم في العالم بغرانيته الصلد الصامت يطالع الاهرام ويبتسم حناناً لشبابها

قد ندرك الآن السبب الذي أدى بالجنس المصري بعد تكونه البطيء في عزلة عن الدنيا بحاجزي الصحراء و[illegible] إلى بلوغ الوحدة القومية التي استخرجها من أصله [illegible] وحفظ بها إلى [illegible] هذه ظاهرة على أبنائه ظهورها على غرانيت معابده وقبوره [illegible] من آلاف السنين



(الكاتب المصرى)
للدلالة على السحنة المصرية

الفصـل الثاني

تاريخ مصر القديمة

(١) مصادر تاريخ مصر ، الـكرونولوجيا

تاريخ مصر فتح من فتوحات العلم الحديث فقد كان العالم الى أواخر القرن الثامن عشر لا يعرف من أمر مصر الا ما ورد في تواليف كتاب الاغريق ، وكانت كتب ديودور الصقلي وهيرودوت هي المصادر الوحيـدة المعروفة بالرغم من نقصها وقلة الثقة بمـا بها لامتلائها بالمتناقضات الظاهرة والاقاصيص الخرافية ، وكان هناك كتاب باليونانية يرد عهده الى زمن بطليموس فيلادلفوس به تسلسل السـنين ومؤلفه قسيس مصري اسمــه (مانيتون) ولـكن جدول الملوك الذي أورده به يرد عهد أوائلهم الى ٥٠٠٠ سنة قبل التاريخ المسيحي ولم تـكن للـكتاب المذكور أية قيمة في عهد كانت به نصوص العهد القديم خير ما يحكي به تاريخ أوائل الانسانيـة ، وكان العبرانيون في الاعتبار أقدم الشعوب وأكثرها حضارة إلهيـة ، وكانت الارض في الاعتقاد خارجة من الفوضى فجأة الى النظام خروج لويز الرابع عشر الى التخت أو خروج معاهدة البرانس الى حيز الوجود . . . .

فلما جاء كشاف شمبوليون استطيعت قراءة جميع ما ترك المصريون . وأزيح الستار عن تاريخ الامبراطوريات التي تعاقبت على وادي النيـل في أدق تفصيلاته، وفي الوسع اليوم درس أمور عواهل مصر كما يدرس تاريخ ملوك البوربون من السنويات الرسمية ونقوش القبور ومذكرات الخصوصية

وقد حققت كتابات مؤرخي الاغريق وجريدة الملوك التي وضعها مانيتون فلوحظت صحـة الجريدة المذكورة وعرفت مقدار روايات هيرودوت وديودور واتضح أن

أولهما غاية في الدقة من حيث درس العادات ، ولا بدع فقد وصف ما رأى وعاين بعين ناقدة ولغة غاية في الجمال وقص علينا ما يفعل المصريون في حياتهم الخاصة وفي الاعمال والمراسم الدينية وفي تنفيذ القوانين ، ودقق في صفة الآثار التي وجدت في عصره ولم يبق منها الا أطلالها اليوم . أما التاريخ الحقيقي وحوادثه فانه لم يوردها على نظام وقد تخالل رواياته ما جل أو قل من المبالغات التي كان يستقيها من القسوس

والأسانيد المصرية الوحيدة التي يصح ارتكاننا عليها اليوم قسمان . قسم للتاريخ العام كجريدة الملوك وروايات الوقائع والقوانين المدنية والدينية . . . الخ . وقسم لوصف المعيشة ومقتضياتها وأساليبها عند سكان وادي النيل .

ومادة القسم الاول ما سطر على البردي او نقش على الأحجار (كبردية تورينو. وقاعة الاجداد) بالمكتبة الاهلية و (جدول ابيدوس) بالمتحف البريطاني و (جدول سقارة) بمتحف القاهرة . ثم النقوش التي يخطئها العدّ على الآثار الغرانيتية والعمد والمسلات والاهرام والقبور وبها الحوادث المختلفة التي تقلبت على مختلف عهود الاحكام

وهناك أسانيد خاصة بالحياة العادية عرفت من النقوش البارزة وقد قرنت بكتابات هيروغليفية ايضاحية غطيت بها الحافات الداخلية للقبور وورد بها تفصيل حياة المصري في يومه . ويضاف على هذا ما وصل الينا من التواليف الادبية والمخطوطات والقصائد والرسائل وكتب العلم والمذكرات

أما التوقيت فلا يزال الى الآن جهة الضعف في تاريخ مصر ، والسبب ان عدداً كبيراً من الاسرات الملكية التى دونها مانيتون ووجدناها على ورق البردي . فيها من حكمت معاً في وقت واحد كما يرى بعض النقدة وفيها من حكمت على التعاقب كما يرى آخرون . ولم يكن عند المصريين مايؤرخون به فغاب عنهم ضبط حوادث كل حكم اللهم الا بأدلة فوجب اذن ان تضاف عهود الاحكام بعضها الى بعض ليحصل توقيت جامع ولكن هناك أوقات انقسمت فيها مصر الى ممالك مستقلة فكان الواجب أن تذكر الاسرات التى حكمت متعاقبة لا مجموعة . ويلوح لنا أن مانيتون لم يدرج

في جريدته الاكبار الاسرات متعاقبة لا يتخللها ما كان من الاسرات الصغيرة التي عاصرتها، فجريدته بهذا الاعتبار خير مرشد بين أيدينا الى اليوم عن توقيت مصر ولكن مزاعم العلماء الحاليين تخالفه في تاريخ اول ملك مصري بنحو ١٨٠٠ سنة . فبينا يقول (بكخ) ان هذا الملك حكم سنة ٥٧٠٢ قبل المسيح اذا بآخر هو (ليبسيوس) يقول بل كان حكمه سنة ٣٨٩٢ . وأما مانيتون فقد قال بتاريخ وسط وافق عليه في العصر الحالي أكبر علماء العاديات المصرية نعني ماريت باشا اذ اعتبر سنة ٥٠٠٤ قبل المسيح تاريخاً للملك مينا اومنيس مؤسس الملكية المصرية

وعدوا ستاً وعشرين أسرة ملكية من سنة ٥٠٠٤ الى سنة ٥٢٧ قبل المسيح وهو تاريخ استيلاء الفرس على وادي النيل

وتتوزع هذه الاسرات على ثلاثه أدوار رئيسية : دور الامبراطورية القديمة ويشمل عشر أسرات من سنة ٥٠٠٤ الى ٣٠٦٤ . ودور الامبراطورية الوسطى وبه سبع أسرات من سنة ٣٠٦٤ الى سنة ١٧٠٣ . ودور الامبراطورية الجديدة وفيه تسع أسرات من سنة ١٧٠٣ الى سنة ٥٢٧

وعدوا بعد الفتح الفارسي لمصر سنة٥٢٧ خمس أسرات تشمل أسرات الفاتحين فيبلغ بذلك عدد الاسرات المصرية الحاكمة ٣١ أسرة

وكان مقر ملوك الامبراطورية القديمة ممفيس . ومقر الوسطى طيبة . ومقر الحديثة سايس ومدن الدلتا ولكن أهمية هذه العواصم لا تتفق وتعاقب الامبراطوريات الثلاث. وقبل أن ندخل بالقاريء في درس الحضارة المصرية ذاتها نلخص له التاريخ السياسي للادوار التي ذكرناها

(٢) الامبراطورية القديمة

ظن المصريون في البدء انهم كانوا محكومين بالآلهة . واعتقدوا ان أجدادهم وأسلافهم (شبسوهور أو خدم هوروس) انما أوتوا نظامهم المدني وقوانينهم من الحكمة الالهية . ويرجح ان مصر كانت في عصر ما قبل التاريخ اوتوقراطية ، فكان فريق الكهنة حكامها وسادتها ، يزعمون انهم تلقوا عن الآلهة الامر وآذنوا به الشعب .

وفي هذا أول وجه من أوجه الحكومات الاولية . و بعد دور السلطة المطلقة المستمدة من الآلهة يأتي على الاغلب دور العهد الحربي والاقطاع . وهذا على الراجح أيضاً ماحصل بمصراذ أحدث الانقلاب مينا اومينيس الملك الاول في سنة ٥٠٠٠ قبل المسيح

ونلاحظ ان الفريق العسكري كافح طويلاً من قبل ذلك لاسقاط نفوذ الكهنة . ولما زادت سلطة الرؤساء العسكريين في المراكز جمعهم مينا وألف بين قواهم واتفق معهم على الاعتراف به ملكاً فذّاً ، وكذلك ألف الاسرة الاولى

ولقد وجد مصر يومذاك ذات حضارة متقدمة فكانت للنيل الاقنية تروي زراعة مزهرة . وكانت بمصر الفنون عظيمة رائعة ضخمة وعلى أرضها أبو الهول والهيكل الغرانيتي وما جاوره من الاطلال العظيمة وكلها سابق على الارجح لعهد الامبراطورية القديمة . تخبر عن عصور عريقة في الخفاء عبرت فيها البشرية عن فكرتها بشكل من الحجر وقدمها الاسلاف الى الآلهة شكراً على ما منوا به عليهم من القوانين

شاد منيس مدينة ممفيس وصانها عن النيل وفيضانه بجسر عظيم لاتزال بعض بقاياه . وجعلها هدية للآله فتاح . ومن اسمها ونسبتها الى هذا الآله حرف الاغريق اللفظة فوضعوا مكان (حاكافتاح) لفظة (ايجيبتس) فكان اسم مصر الحاضر عند الغرب

ولمينا اسم لا ينسى على توالي العصور فهو الأصل في وحدة وادي النيل . ولقد سبق لنا القول بأن مركزية الحكومة لا بد منها لرفاهة قطر مصر اذ بدونها لا تتسنى وحدة اعمال الري واستفادة البلاد

على ان نظام مصر على عهده لم يخل من الاقطاع فرؤساء المراكز كانوا يدينون للملك بواجب الاحترام والسيادة و يؤدون الخدمة العسكرية و يقومون باعمال المنافع العمومية سخرة . و بقي هذا النظام معمولاً به ولكن كانت الوحدة تزداد توثيقاً على عهد كبار الملوك المتسلطين وتضعف في عهد الاسرات الضعيفة

ومن مينا نزل الفراعنة . ابناء الإله ، إله الشمس . ثم اريد ان لا تنقطع السلالة الإلاهية فقيل انها قد تنتقل بوساطة النساء فاذا مات ملك عن غير عقب ذكر يرث

الملك ، تحتم على من يرقى العرش من اسرة جديدة ان يتزوج من اميرة من الاسرة التي سبقته في الملك لينتقل دم مينا من جيل الى جيل .

ولم تعقب الاسرات الثلاث الاولى الا بعض آثار ضعيفة في التاريخ . ومع هذا فقد كانت العلوم رائجة والكتابة موجودة . ويذكر ان احد ملوك الاسرة الاولى وضع كتاباً في التشريح . وان احد التواليف الطبية موجود بورقة البردى المحفوظة ببرلين وهي من ذلك العهد : والراجح ان اهرام سقارة بني في الامبراطورية القديمة وان عبادة الحيوانات، كالعجل أبيس في ممفيس والتبس في منديس تقررت في عهدها .

وهناك ما يحمل على الظن ان الملكية لم تسد الاريستوقراطية الاقطاعية الا بعد كفاح . كما فعل في فرنسا فرع الكابتيان وتشهد الكتابات التي وجدت بأن اسرات قامت في وقت معاً وكادت تتوازن سياداتها . والظاهر ان الاسرة الثالثة كانت اول اسرة وطدت سلطانها وجاءت حقاً بوحدة مصر ومهدت للحضارة الزاهرة التي بلغت الاوج في عهد الاسرة الرابعة ، عهد الفن المصري البالغ وبناء الاهرام وعظمة ممفيس .

وقد كان الملك صنفرو آخر ملوك الاسرة الثالثة من خيرة الحكام فاجتاز برزخ السويس وأنشأ في سينا مستعمرات المناجم تستخرج منها النحاس والفيروزج وكانت منبعاً لثروة مصر . الا ان شهرة صنفرو إمحت امام خلفاءه كيوبس وكفرن وميكرنيوس من ملوك الاسرة الرابعة ، فستظل اسماؤهم باقية ما بقيت شفاه تتلفظ بها لأنهم اقاموا الهرمات الثلاثة بالجيزة وسنصفها في فصل لاحق . واذا لم يكن فيها من عجائب في ظاهرها فانها من الخوارق في فن العمارة من الداخل اذ بقيت غرفها ومجازاتها قائمة لم تهبط سقوفها تحت ثقل الملايين من الكيلوغرامات آلاف السنين .

ان هذه الآثار الهائلة اتبقى الى الأبد دلالة على قدم من اقاموها وعلى مجدهم معاً ، لأنها انما اقيمت كمقابر لهم . ولأن البشرية لم تعرف في غير الهرم مجهوداً بذله فان ضد الزمن الذي يودي به والنسيان الذي يحتويه . لقد خلد كبار ملوك الاسرة الرابعة على الارض ذكراهم بما شاءوا فلا يضيرهم ان تتكسر تماثيلهم او يتفرق رفاتهم فاسماؤهم

تنادي بها الهرمات وسط سكون الصحراء التي يغشاها السائح فيقف متأثراً ذاهلاً مستشعراً صغر شأنه امام جلال ذكرى من ابتنوا هذه الخوالد .

ويطوف بتلك الجبال الحجرية خيال رابع لطيف نعني به خيال نيتوكريس التي أتمت من بعد عدة قرون بناء هرم ميكرينوس وغطته بطبقة ثمينة من السُماق وأرادت أن ترقد فيه في نعش من المرمر الازرق فوق غرفة الملك التقي الذي احترم الشعب رقدته فلم يزحزحه عن مضجعه كما فعل بصاحبي الهرمين الكبير والأوسط

وكانت نيتوكريس من ملوك الاسرة السادسة وبها ختمت سلسلة الملوك الاماجد . فكانت آخر من شهد ازدهار الامبراطورية القديمة . وما بلغت مصر في عهود كيوبس وكفرن من الفنون والعلوم واليسر العام واذا كان من أتوا بعد ذلك من الملوك لم يزدادوا رفعة ويسراً فقد شحذوا الهمم للاحتفاظ بما خلفه أسلافهم من العظمة .

وحدث في حكم أحدهم تعيين عظيم من رجال الدولة للمحافظة على دار الكتب، فدل هذا على وجود المكتبات والعناية بها . ورأينا أيضاً أن بردية (بريس) الموسومة بأنها أقدم كتاب في العالم تشمل وسط خليط من الكتابات القديمة فصولاً من تواليف فلسفية وعلمية كانت موجودة في ذلك العهد الغابر

أما من الجهة الحربية فكبار ملوك الامبراطورية القديمة لم يتفاضلوا كما تفاضلوا من الجهتين الأدبية والفنية . ولكن پاپي الأول الملك الثاني من الاسرة السادسة أخضع اتيوبيا والنوبة وقهر الرحل في سوريا ووردت اخبار ذلك كلها في حديث دونه (اونا) وزيره الامين .

وفي نحو هذا العهد اخذت عظمة ممفيس في التناقص بعد الابهة والجلال وفضلت عليها (ابيدوس) في الاقامة وقل التفات الفراعين لعاصمتهم . وكانت الآثار قد غطت ارض مصر . وحفر الملك امون رع صورته حتى الشلال الاول . ثم انتهى فخار الملك بنورقرع ونيتوكريس وختم السير الذي توالى واتصل ما يقرب من ثمانمائة سنة .

ولنيتوكريس الجميلة (ذات الخد الوردي) قصص تكاد تدخل في حكم

الاساطير. قال هيرودوت انها أرادت ان تثأر لأخيها وكان ايضاً زوجها ، ممن قتله . فابتنت بهواً فسيحاً تحت الارض وزعمت انها تريد الاحتفال بافتتاحه ودعت الى الحفلة رهطاً ممن علمت انهم حرضوا على قتل زوجها . وفي اثناء الطعام ارسلت على البهو ماء النيل من قناة خفية . ثم القت بنفسها بعد ذلك في قاعة كبيرة ملأى بالرماد لتتحاشى العقاب على ما فعلت .... وبقي المصريون طويلاً يعتقدون أن طيف هذه الملكة الذكية الحسناء لا ينفك يطوف بهرم ميكرينوس الذي دفنت به وان صورتها الفاتنة تسبي من يخاطر ويقف لرؤيتها . على اننا وان لم نتبين قط ذاك الطيف الجميل عند الهرم فانه يتراأى لنا في التاريخ خاتمة لمجيـد عصر الامبراطورية القديمة . ويبدو لنا وسطاً بين عهد ممتلىء بالمفاخر . وعهد غامض صامت دام زهاء خمسة قرون غابت عنا معالمه وخفتت اصداؤه فكان نقطة النقص المهم الوحيدة في تاريخ مصر . فتعاقبت اربع اسرات فيه ولم تخلف لنا عملاً نذكرها به . ثم لما بدا لنا النور مرة اخرى كانت الامبراطورية الوسطى قد توطد امرها وتغيرت عاصمة مصر وتحول كل شيء في وادي النيل .

(٣) الامبراطورية الوسطى

جاءت الامبراطورية الوسطى باسرات جديدة يرد عهد أوائلها الى ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح واتخذت طيبة عاصمة لها فانتهى زمان مجد ممفيس . وقد كان هذا من الامور المنتظرة ، فحكام طيبة كانوا قد حصلوا على بعض الاستقلال وأخذوا في مزاحمة حكام مصر السفلى . وكان اولئك الحكام قد تعرضوا مراراً لهجمات زنوج الجنوب فقصروا همهم على تجييش الجيوش وحفظ الحدود التي تناقصت في عهد انقسامات الامبراطورية القديمة حتى عادت الى سابق عهدها عند الشلال الاول

وكان حكام طيبة يزعمون أنهم من سلالة پاپي الاول وتلقب كثير منهم بلقب الملوك قبل أن يقضي امنتحوتحب الرابع على الاسرة العاشرة ويجمع تحت سلطته مختلف اقطار الامبراطورية

ومن ثم ظهرت أعراض التغير على كل شيء في مصر وجدد تفوق طيبة طراز الحكومة والرسميات والاسماء في الاسرات والديانة حتى الآلهة الذين عبدهم الاسلاف القدماء في عاصمة مصر العليا ، وحل آمون واوزيريس محل فتاح ممفيس ودع الذي دانت به الاسرات الاولى

ولم تلق الاسرة المالكة الجديدة صعوبة في توطيد مركزها فلم يمض اكثر من نصف قرن على التقريب حتى كان لطيبة وحكامها السيطرة بلا منازع فكان دور من أدوار عظمة مصر على يد الاسرة الثانية عشرة وهي اعظم اسرات الامبراطورية الوسطى اذ شهدت عصر رقيّ فني ومجد حربي يذكران بما كان على عهد الاسرة الرابعة في الامبراطورية القديمة ولكنهما لا يفوقانه

ان التاريخ لخليق بتدوين اسمي امنمحت واوزورتزن كعظيمين من اكابر الحكام اصحاب الحروب وبناة الحضارة . وحمل هذين الاسمين مع التفرقة بين الحاملين بالعدد معظم ملوك الاسرة الثانية عشرة . ومعظمهم أيضاً اشترك معه في الحكم ولده الذي يخلفه من بعده فأدى هذا الى نقل السلطة من دون اضطراب فجاء حكم الاسرة بذلك معززاً للوحدة ضامناً لها

وتاريخ مصر في العهد المذكور ممتلىء بالمستندات . حافل اكثر من سواه بما اقيم من الآثار العامة والخاصة اذ تمكن الأغنياء بفضل ما توافر من الثروة العمومية من انشاء القبور المغطاة بالنقوش تفصل جميع وجوه حياتهم ودخائل امورهم اليومية واختصت الكتابات الرسمية في ذاك العهد بتدوين أخبار الانتصارات

وأعاد أمنمحت الاول وولده اوزورتزن مستعمرات مصر في سينا وشرعا من جديد في استخراج النحاس والفيروزج وأنشأ آوراء المستعمرات خطاً من الاستحكامات كان حداً للامبراطورية من الشرق يحميها من غارات القبائل الرحّل في الصحراء . ثم إلتفتا الى اتيوبيا فأخضعا السكان الزنوج ما بين الشلال الاول والثاني كما كانوا وافتتح اوزورتزن الثالث جميع النوبة نهائياً ونقش على صخور الشلال الثاني أمراً ملكياً يمنع الزنج السير في النيل إلى أبعد من هذا الحد لأنه حد الامبراطورية

وكان الوفاق والرفه في داخل للملكة تامين وجميع الفنون والصناعات زاهرة . والقوافل تذهب الى آسيا لجلب الأقمشة المطرزة والأحجار الكريمة والآنية المطعمة بالميناء والرقيق والطيوب والخشب الثمين

ثم ظهر امنمحعت الثالث الذي نشبهه بلويس الرابع عشر في عصور اوروبا ، فأنشأ هذا الملك بحيرة موريس وهي من اكبر الاعمال التي تمت في مصر بل في العالم برمته

في مقابل ممفيس القديمة ، ناحية الجنوب قليلاً ، غرب النيل ، تتسع السلسلة الليبية وترى في أسفلها واحة تسمى الفيوم أراد امنمحعت الثالث أن يحولها واقليمها إلى خزان عظيم يرسل اليه الزائد من مياه النيل تنظيماً للري في انحاء الوادي . وكان عرض الجسور الصناعية التي تحف البحيرة خمسين متراً ولا تزال بقايا ذلك قائمة لاحظها لينان باشا على اكثر من ٥٠ كيلو متراً طولاً .

وفي وسط هذا الخزان الشاسع الذي أسماه الاغريق بحيرة موريس أقيم أثران هائلان يمثلان أمنمحعت الثالث والملكة زوجته . فاذا امتلأ الخزان وارتفع الماء وصل إلى قدمي الأثرين كانما يلاعبهما ويقدم لهما فروض التبعية .

واعتبر هيرودوت البحيرة المذكورة عجيبة مصر ولكن امنمحعت الثالث أضاف اليها البناء الشهير المعروف باسم (لابيرنت) وهو أوسع قصر في العالم لم تكن تقل حجراته ومقاصيره عن ٣٠٠٠ وواجهته شاسعة من الحجر الأبيض تتألق فوق البحيرة .

وحافظت الاسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة على مجد الاسرة التي سبقت فدام هذا نحو الف سنة . وفي نحو سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح كانت اغارة الرعاة أو الهكسوس التي قضت على ذاك المجد الباهر

جاء الهكسوس شعوباً من أقصى كلدة . وما قذف بهم الى مصر الا الاضطراب الذي استولى يومئذ على الامبراطوريات الاولى التي تأسست على الفرات . فاندفع الهكسوس الى ناحية مصر وساقوا امامهم الرحل في سوريا وبلاد كنعان وعبروا

معبد الدير البحري كما كان

برزخ السويس كالجراد المنتشر وأغاروا على الدلتا وملكوها وأخذوا ممفيس وأنزلوا الخراب بمصر الدنيا

ولقد كان المصريون من زمن طويل على عادة مكافحة الرحل الذين يغيرون للنهب وكانوا يسمونهم سوس . ثم أسموا زعيم المغيرين الفاتحين هيك فضم الاغريق اللفظتين وقالوا هكسوس .

ولقد قضى الهكسوس بضع سنين في القتال والنهب والسلب ثم وطدوا ملكيتهم ونظموا امورهم وصار لهم ملوك نسجوا على منوال الفراعنة . وتوالت منهم ثلاث اسوات عدها مانيتون الاسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة من ملوك مصر . وعاصمتهم تنيس في الدلتا . اما الحكومة الاهلية فكانت في مصر العليا . وبقي حكم الهكسوس نحو خمسة قرون كانت مصر فيها منقسمة الى نصفين . وحافظ ملوك طيبة وقتها . ولو بعد ضعفهم ، على تقاليد الفراعنة السالفين في العظمة والاستقلال

وحدث في الدلتا . كما يحدث في كل صقع ينزل الفاتح فيه على من هم أرقى منه حضارة . فأخذ الرعايا المغلوبون في تهذيب سادتهم وجرى الفاتحون من حيث لا يشعرون على أساليب أهل مصر وقوانينهم . بل دانوا بدينهم أيضاً . ثم خشى الهكسوس أن يغير عليهم أمثالهم من الصحراء السورية فأقاموا مدينة حصينة على آخر مصب شرقي للنيل اسمها اڤاريس واحتفروا بقربها خندقاً عظيماً يحمي معسكراً يسع ٢٤٠ الفاً من المقاتلة

وكانت حكومة الهكسوس من ثم بفضل تدابيرها العسكرية وما أفاض عليها المصريون من علم . غاية في المنعة ولكنها لم تبلغ قط شأو الاسرات المصرية الكبيرة وفي اثناء حكم الهكسوس نزل أولاد يعقوب وهم بنو اسرائيل أرض مصر وأقاموا بها وصار يوسف المذكور في الانجيل وزيراً ونديماً لأحد ملوك الرعاة ويرى من رواية العهد القديم أن ملوك الرعاة لقبوا أنفسهم أيضاً بالفراعين .

إلا أن الاسرات المصرية الحاكمة في طيبة استطاعت في نهاية الأمر طرد الغاصبين واعادت الوحدة والاستقلال الى مصر ولكن بعد حرب دامت ١٥٠ سنة

دافع الهكسوس فيها عن انفسهم خير دفاع . ثم جاء الملك احمس الأول فاستطاع الاستيلاء على معسكر الهكسوس العظيم في اڤاريس وأجهز على بقيتهم الباقية في الدلتا . فصار الهكسوس من ثم عصابات لا نظام لها ولا جامعة فعادوا أدراجهم بلا نظام الى برزخ السويس . واستعبد المصريون من بقي منهم ومن كان يتبعهم من الاسرائيليين وساموهم سوء العذاب جزاء بما كانوا يفعلون

التئم شمل مصر ثانية كما كانت فأسس احمس الأول الاسرة الثانية عشرة حوالي القرن الثامن عشر قبل المسيح وأخذ بعد تخليص البلاد من النير الاجنبي في تهدئتها ورأب صدوعها وشفاء جراحها التي اصيبت بها في حروبها الطويلة ضد الغاصبين فاستحق هذا الملك لقب المخلص والمجدد معاً وما أسدي اليه من التعظيم الجدير بالآلهة . وفتح لمصر من يومها عهد جديد هو عهد الامبراطورية الثالثة أو الحديثة التي أتحفت مصر بمجد لا يقل عن مجد الامبراطوريتين السابقتين فتحوتمس وامنحوتب فاقا في الشهرة كيوبس وامنمحت واوزورتزن .

(٤) الامبراطورية الحديثة

ابتدأ عهد هذه الامبراطورية المذكورة في أوائل القرن الثامن عشر قبل المسيح على وجه التقريب . وكان اول ادوارها حربي لخلاص مصر فرقت الروح الحربية فيها الى أقصى درجة لطرد الرعاة وقاتل المصريون بقيادة امنحوتب الاول ثم ابنه احمس ولم يضعوا السلاح من ثم إلا بعد أن أنهكتهم حروب خمسة قرون وانقضاء ثلاث اسرات لم يقر لمعظم ملوكها قرار في مكان

وكانت ميادين القتال لمصر في آسيا شمالاً بشرق وفي اتيوبيا بالجنوب .

وافتتح امنحوتب الاول اتيوبيا وضمها الى مصر ومساحتها لا تكاد تقل عن مساحة بلاده وقدم حدود مصر جنوباً الى الشلال الرابع وأجرى على النيل الأزرق قوانين مصر ولغتها وديانتها وعاداتها فكان عمله استعماراً تاماً اكثر منه فتحاً بحيث تعذر فيما بعد التفرقة بين المدنيتين فوقع المؤلفون الاغريق في الخطأ وظنوا مدنية مصر من اتيوبيا وأصلها من الاتيوبيين

وبعد اخضاع اتيوبيا أو بلاد كوش كما كان يسميها المصريون . كان تحوتمس الاول أول من قاد المصريين للفتوح بآسيا وأعانه كثير من الشعوب الصغيرة التي كانت نازلة ببلاد كنعان وسوريا . وكان مفتاح تلك الاصقاع مدينتين حصينتين هما (مجدو . وقادس) فسمي باسمهما كثير من الوقائع

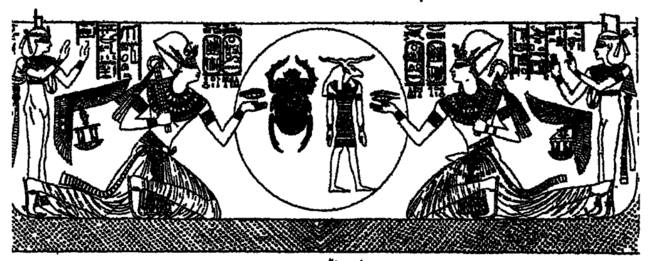
وتقدم تحوتمس الأول فاتحاً منتصراً حتى ضفاف الفرات وهنالك أقام الآثار الدالة على حربه . وخضعت شعوب آسيا للضرائب ولكن مصر لم تستطع استغراقها كما استغرقت اتيوبيا ومصرتها فكان الاسيويون يثورون كلما آنسوا ضعفاً في نير مصر فتعود هذه إلى إخضاعهم .

وأزوج تحوتمس الاول ولده تحوتمس الثاني من ابنته حاتاسو كما كانت العادة فاشتركت الاميرة في الحكم اشتراكاً فعلياً طيباً مدة شباب أخيها وزوجها وكانت قوامتها على الملك مجيدة فارسلت حملة في البحر الاحمر الى شواطئه الجنوبية والى بلاد العرب فعادت بغرائب حاصلات الهند من الأحجار الكريمة والاقمشة الثمينة والتوابل التي لم تكن معروفة . وكان لا يحل فصل من فصول السنة الاّ وترد الى مصر المنتصرة الخيرات من العبدان والأسلحة وأواني الذهب والحيوانات النادرة فتمر في شوارع طيبة . وجاء الفاتحون أيضاً بالخيل ولم تكن معروفة في مصر فأعجب بها الناس أيما اعجاب . وجيء أيضاً بالخنزير وبمجهولات من انواع الكلاب .

تحوتمس الثالث الملقب بالكبير هو اكبر فاتح مصري على التحقيق . اما اعمال سيزوستريس التي ستراها فيما بعد فقد جسمها المؤلفون الاغريق . ان تحوتمس هذا هو العاهل الفذ الذي أوغل في آسيا الى غاية لم يبلغها غيره فأحرز النصر الاكبر في مجدو وقادس ودوخ شعوب آسيا المتحدة وعبر الفرات ووصل دجلة وصعده الى نينوى فقدم له الملوك الطاعة من دون قتال فعاد الى مصر يحمل في جملة غنائمه الحربية نيوب ١٢٠ فيلاً اصطادها هو وقواده في بلاد آشور

وبعد تحوتمس الفاتح العظيم جاء المصلح الكبير امنحوتب الثالث أو أمينوفيس الذي زين طيبة على زينتها فدل على أن مصر لم تفقد الميل الى الابنية الفخيمة الرائعة وعلى انها في عهد الاسرة الثامنة عشرة متابا على عهد الثانية عشرة او الرابعة عشرة

بنى أمنحوتب الثالث معبد آمون بطيبة وأقام تمثالان هائلان كسر أحدهما بعد ذلك فصار عمود ممنون الذي يطالع الشمس كل صباح بالانغام . ثم كان امنحوتب الرابع فحصر همه في الدين وأراد تسويد عبادة الشمس . ومن بعده أخذت الأسرة الثامنة عشرة في الضعف فصغر شأن ملوكها وانشقت عصاهم واشتعلت بينهم الحروب الداخلية فضاعت على مصر فتوحاتها .



عبادة الملك للشمس

وجاء بعد ذلك رمسيس الاول مؤسس الاسرة التاسعة عشرة وولده ستي الاول وحفيده رمسيس الثاني الملقب بسيزوستريس وبالكبير . وكانت مدة حكم هؤلاء الملوك غاية في المجد ولكنها أقل مما كان معروفاً إلى أيامنا هذه وأقل من شأن كبار ملوك الاسرة الثامنة عشرة . ذلك لأن ستي وولده حاربا حروباً دفاعية فاحتفظا بما فتح تحوتمس وامنحوتب ولم يزيدا عليه . وأهم حروبهما كانت في آسيا بسوريا ضد امة جديدة هي الخيتاس التي تفوقت وسادت البلاد كلها من قادس الى قرقميس

وكان الخيتاس غاية في القوة والغرام بالاستقلال فلم يفز منهم المصريون بطائل واضطر رمسيس الاول وستي ورمسيس الثاني الى مفاوضتهم مفاوضة الند للند .

وامتاز رمسيس الثاني في الحروب ووالده لم يمت بعد في نحو سنة ١٥٠٠ قبل المسيح اذ رد غارة على مصر من جهة ليبيا تحالف لها شعوب آسيا الصغرى وأهل جزر الأرخبيل وأنزلوا جيشاً كبيراً غرب الدلتا لينضم إلى الليبيين فأزال رمسيس خطرهم عن مصر . ثم التفت إلى اتيوبيا التي ثارت فأعاد عليها سلطان مصر . ولما

مات أبوه خلفه على الحكم . وكان الخيتاس يألبون عليه جيرانه وشعوب آسيا الصغرى فقاتلهم جميعاً وفاز بعقد معاهدة مع ملك الخيتاس دفاعية هجومية دعمها بزواجه من ابنة الملك المذكور ودعاه الى زيارة مصر فزارها . وقد وجدت نصوص هذه المعاهدة وتعتبر أقدم أثر سياسي في العالم

ومهما كانت حروب رمسيس الاكبر في رفعة الشان فانها لم تبلغ حد تلك الغارات الخارقة التي رواها الكهان لهيرودوت وقالوا فيها ان رمسيس قاد جنوده حتى نهر الدانوب وشواطىء بحر الهند . وهل نسي هؤلاء أن من الضعة لفرعون مصر أن يفاوض سوريا عاصياً و يتزوج من ابنته و يستقبله في طيبة المقدسة مدينة آمون إله الشمس

ان الفخر الحقيقي لرمسيس الثاني انه كان اكثر ملوك مصر عمارة فذاع اسمه بما غطى به البلاد من الآثار التي حملت اسمه ونوهت بفعاله . انه ابتنى من المدن المصرية على كثرة عددها معبداً للاله المعبود بها . وأنهض مدينة تنيس من كبوتها وعنى عناية خاصة بطيبة وأقام بها أثراً جميلاً خاصاً به واكمل معبد آمون الذي ابتدأ به امنحوتب الثالث وزينه بمسلتين احداهما في باريس بميدان الوفاق اليوم . والى زمنه يرجع بناء البهو المشهور المحمول على ١٣٤ عموداً .

وأنشأ من الأبنية التي تخلد نصره ايضاً بارض النوبة مسلة لا تقل في الطول عن ٢٠ متراً وضعها بمدخل معبد ابي سنبل . وأقام في سوريا أيضاً أثرا باكمل اسمه . وكان على عهده الشاعر بنتاؤور فخلد ذكره ووصفه لنا في احدى القصائد بوقعة قادس ومن حوله الفان وخمسمائة من مركبات العدو الحربية يكسرها و يقتل من فيها بمفرده ولكن بمعونة الاله آمون .

و بالرغم من عظمة حكم هذا الملك الكبير فانا نلمح في عهده بدء الاسباب التي أدت بعد ذلك بقليل إلى انحطاط مصر فالشعب قد أبهظته ضرورات الحروب المستمرة واقامة الأبنية العظيمة . واعقب الافراح بالانتصارات الزهد فيها ثم المجاهرة بالعصيان . وشرع العبيد أنفسهم من كثرة ما عانوا يبدون السخط والاباء . وزاد

العسف على بني اسرائيل وطفح كيلهم فتركوا لنا في كتبهم المقدسة وصف البؤس الذي عانوه واكثروا من صب اللعنات على ذكرى الملك العظيم .

وفي عهد منفتاح أو أمينوفيس ولد رمسيس الثاني ابتدأ الانحطاط فاصيبت مصر بغارة رهيبة من ناحية ليبيا كادت تستبيح الدلتا فصدها المصريون ولكن شجر الخلاف والشقاق في الداخل . واستقل كبار الحكام وحاول بعضهم حمل اللقب الملكي . ومعروف انه ما ضعفت السلطة المركزية في مصر إلاّ حاول كل حاكم تاليف حكومة على حدة وعلى هذا فقد قام على النيل عدد كبير من الاسرات، الحاكمة في وقت معاً وكلها متعاكسة .

وفي عهد منفتاح او امينوفيس كانت هجرة العبرانيين من مصر بقيادة موسى على أشهر الروايات ولولا الفوضى لما جسر فريق من العبران أن يتركوا أرض العبودية من دون أن يخشوا العقاب .

ومن وسط المنازعات والخصومات نبتت الاسرة العشرون وكان لمصر منها آخر فرعون هو رمسيس الثالث فانتصر على الليبيين المغيرين وعلى السوريين العصاة وأقام الأبنية وزاد في شأن التجارة والصناعة وحفظ لمصر عهدها الذي رأته زمن الأسرة التاسعة عشرة ولكن كان ذلك كآخر لمعة للحضارة الموفية على الانطفاء .

عاشت الامبراطورية الى ذلك العهد ٤٠٠ سنة ولكنها كانت محوطة بشعوب فتيـة لا تعرف الدعة تغلغلت في احشاءها شيئاً فشيئاً فلم تستطع تلك الامبراطورية ثباتاً فتداعت وطغى عليها النفوذ السامي والليبي والاتيوبي والاغريقي رويداً رويداً حتى في اللغة فجاء الانحلال بطيئاً سلمياً . وليس للاسرة العشرين فيما عدا رمسيس الثالث ذكرى تهمنا في التاريخ

وقبيل انطفاء الامبراطورية رأيناها تنشطر الى شطرين . شطر مصر العليا وقد تولاه هرهور أحد كبار كهنة آمون واتخذ لنفسه لقب الملك واجتهد اعقابه في الاحتفاظ بالحكم . وشطر الدلتا الذي قامت فيه الاسرة الحادية والعشرون تنازعهم مصر البحرية .

وكانت طيبة الى هذا العهد سيدة بلاد النيل فغدت عاصمة السلطة الدينيـة

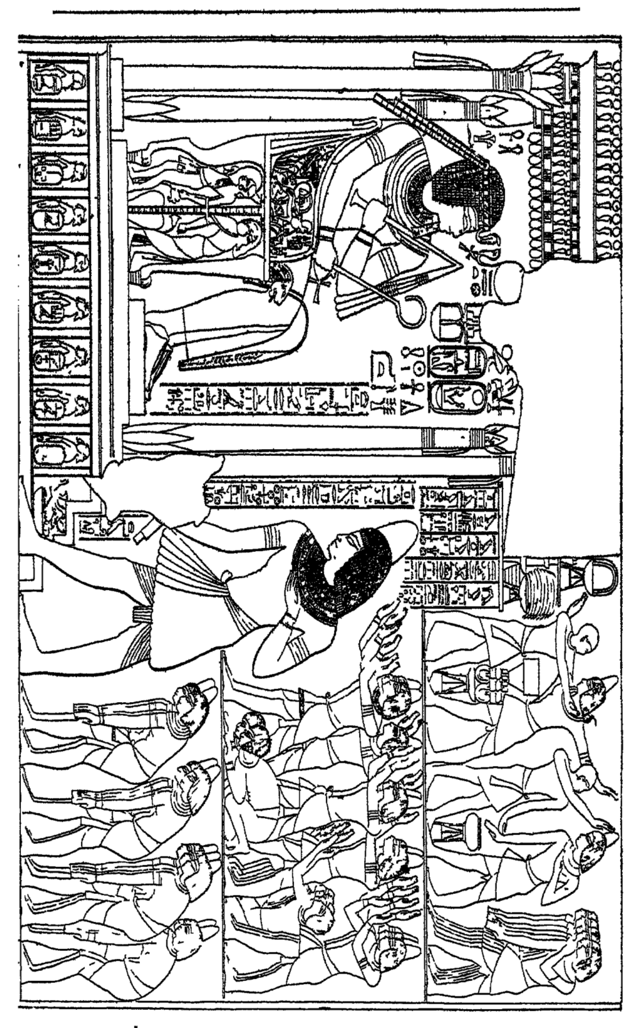
فحسب ولكن سلالة كاهن أمون لم تنجح في اغتصابها الملك فانسحبت الى اتيوبيا وأقامت مملكة عاصمتها ناباتا اقتطعتها من وحدة مصر

وظهرت الاسرة الثانية والعشرون في الدلتا ايضاً وبقيت بها وزادت في عمارة مدن تنيس وبوبسطه وسايس فانتهى امر طيبة نهائياً ودب اليها الخراب شيئاً فشيئاً ولكنه بقيت لها إلى أيامنا هذه ذكرى عظمتها وجلالها في تلك الانقاض التي يطالعها المؤرخ والسائح كلما مر بمصر

وكان رأس الاسرة الثانية والعشرين من أصل سوري اسمه سسهونك فازداد به النفوذ السامي في الدلتا فكان لا يستتر كثيراً اذا ما أراد عبادة الآلهة السورية. ولقد سماه الانجيل سيزاق. وبعد ان انقسم بنو اسرائيل عمد هذا الملك إلى ارسال حملة على فلسطين فلقيت الظفر وعادت من القدس بكنوز سليمان. ولما مات هذا الظافر لم يجرأ سواه على المطالبة بأي حق على أقاليم الأردن وما جاوره وعاد برزخ السويس حداً للامبراطورية

ثم توالت على مصر بعد ذلك أربعة قرون أو خمسة في حروب داخلية وتناقص تدريجي وحكم في الدلتا نحو ثلاث أسرات لم يكن لهـا من الملكية الا حظ الاسم لشدة انقسام أهلها. وكثيراً ما استنجد بعضهم على بعض بالاجانب فجاء الاتيوبي والليبي. واعتاد حتى الاشوري أن يصعد النهر وينزله وهو شاكي السلاح بعد ان كان النيل لا يقربه الى المطهر والا كان جزاؤه الاعدام

وجاءت في تلك الاثناء أسرة كانت على شيء من القوة نعني الاسرة الرابعـة والعشرين فجمعت البلاد تحت حكمها مرة أخرى واستولى أحد ملوكها واسمه تونخت على القلاع والمعاقل التي اعتصم بها أصاغر الحكام ولكنه ما وصل الى الشلال الاول الا ووجد أمامه خصماً عنيداً في مملكة نباتا التي كان قد أسسها هرهور الكاهن. وكان على المملكه المذكورة يومئـذ أمير اسمهِ بيانخي فاستعان بخصوم تونخت ونزل النيل وباشر قتاله. وجرت الحرب بين الاثنين سجالاً الى ان تمكن الجيش الاتيوبي من أخذ ممفيس فهزم تونخت ولم يبق في يده الا سايس عاصمته فنودي بپيانخي ملكاً على جميع وادي النيل وتحققت وحدة مصر مرة أخرى ولكن تحت أسرة أتيوبيـة



فرعون على العرش باللباس الملكي والشارات

وسادت ناباتا عواصم الحضارة المجيدة المصرية فأصبحت مصر ايالة للسودان الا أن هــذا النصر لم يكن تاماً فان أحد أولاد توتخت تمكن بعد موت بيانخي من طرد الاتيوبيين وحكم مصر حكماً صالحاً مدة سبع سنوات ويسميه اليونانيون بوكوريس ثم انبرى له الملك سباقون الاتيوبي فقهره وأسره في سايس وأحرقه حياً وأعاد على مصر سلطة أتيوبيا وأسس الاسرة الخامسة والعشرين ومن ملوكها طهراقة الذي اكمل بطيبة معبد الكرنك المشهور

وعاد الامر فانتهى أخيراً بطرد الاتيوبيين فانزووا في مملكتهم ونظموا حكومة ملكية تيوقراطية كبيرة. وكانت عاصمتهم في البدء ناباتا كما قدمنا (هي الآن بركال) قرب الشلال الرابع. وقد دمرتهــا حملة رومانية قبل المسيح بخمس وعشرين سنة. وخلفت ناباتا مدينة مروى على النيل الاعلى بين بربر والخرطوم ولذا سمى الرومانيون اتيوبيا باسم مملكة مروى وبقيت مستقلة حتى الاغارة العربية في القرن الاول من الميلاد

ولسنا نخوض هنا في شأن اتيوبيا وانما نقول انها تركت اثارها في ناباتا ومروى وهي من الهرمات والنقوش البارزة. وحضارة الاتيوبيين من نفس الحضارة المصرية الا أنها أدنى منها وفي هذا دليل على أن شعباً لا يأخذ حضارة غيره الا بعد أن يحولها

أخذت اتيوبيا عن مصر الآلهة والاثار والفنون وكتبت لغتهــا بالهيروغليفي ولكنهــا بقيت نصف بربرية كما حدث فيما بعد للمغيرين على العــالم الاغريقي الروماني القديم

وعندما أحرز سباقون الذي ذكرناه فيما مر ملك مصر. كان على آسور الملك سرجون فأسقط مملكة اسرائيل ومد سلطانه حتى برزخ السويس فاستصرخ ملك غزة بسباقون فتعاونا على سرجون ولكنه هزمهما وفرّ سباقون فلم استقر قراره الا في اتيوبيا لان مصر احفظها خذلانه فثارت عليه واستردت حكامها استقلالهم وانقسمت البلاد الى عشرين مملكة صغيرة

ولكن سباقون جلب على مصر غضب الاشوريين. فغزاها من خلفاء سرجون

سنحريب وزحف حتى بلغ بيلوز على مصب النيل الشرقي وكان عليها سيتوس حاكماً مصرياً وسلطته مبسوطة على الدلتا فأراد المقاومة فخذله جنده فاضطر الى مواجهة سنحريب بجنود من الشعب قليلة الدربة على القتال الا أن حادثاً غريباً وقع في معسكر الاشوريين أنجاه من الدمار . ذلك ان جيشاً من الفيران انقض على معسكر سنحريب وقرض كل ما وجده من الجلود وأوتار الاقواس فتقهقر الجيش الاشوري على عجل اعزل من السلاح .

غير أن فكرة فتح مصر تأصلت في النفوس وعززتها الانقسامات التي كانت تمزق أهلها وتجعل منها لقمة سائغة للطامعين . واذا كان طهرقة الاتيوبي قد جمع شمل مصر تحت سلطانه ورد عنها المغير فان جهوده لم تدم جدواها . فلما مات سنحريب نزح خلفاؤه الى مصر ومنهم آشور بأبيال وصعدوا النيل ظافرين واستباحوا طيبة مراراً بعد عزها ومنعتها ودخلوها ظافرين بعد ان كانوا لا يدخلونها فيما سبق الا أسارى أذلة ، أغلال الرق في أعناقهم وراء مركبات الغنائم الواردة من آشور المقهورة

ومع هذا فلم يتوطد تفوق اشور على مصر . فبعد ان فتحها اشور بانيبال بسنين عاد وادي النيل فانقسم الى عشرين مملكة صغيرة جمعها أحد سلالة ملوك سايس تحت سلطانه وأعاد الوحدة الى مصر وأسس الاسرة السادسة والعشرين ونعني به ابسامتيك المشهور الذي كثرت لدينا عنه الروايات الخرافية . ودام حكم هذا الملك أربعين سنة (من ٦٥١ الى ٦١١ قبل المسيح) . وخاض بعض الحروب موفقاً ووجه معظم همه الى اصلاح حال وادي النيل والتفت الى الفنون والصناعات ولكن روح الابتداع كانت قد انطفأت في مصر وحل محل الضخامة اللطافة والرقة في الحفر والنقش والكتابة

وتولى بعد ابسامتيك ولده نوفو الاول وكانت له عبقرية الفراعنة الا أن البلاد كانت قد انتهكت قواها وكثر فيها النفوذ الاجنبي . على انه اوجد بحرية حربية وأعاد تفوق مصر على سوريا بانتصاره في مجدو وزحف ظافراً حتى ضفاف الفرات وشرع في حفر قناة تربط البحر الابيض بالاحمر جارياً في ذلك على مشروع وضعه

ستي الاول رأس الاسرة التاسعة عشرة . ولما بوشر العمل عُرفت جسامته وأهمل بعد ان مات فيه على ما قيل ١٢٠ الفاً من العمال . وتم في عهد هذا الملك مشروع آخر عظيم هو الدوران حول افريقية كلها فسافر بحارته من البحر الاحمر وعادوا من أعمدة هرقل . وختم حكم الملك نوفو بهزيمة أصابته على يد نبوخذ نصر فعدل عن مشروع فتح سوريا

وكتب لمصر ايضاً عهد سير آخر على يد احمس اواماز يس وهو رجل وضيع سما الى العرش في فتنة الا انه أعاد لمصر مجدها السياسي الذي شبهه هيرودوت مبالغة بمجد الفراعنة السالفين . والسبب ان هذا الملك فتح صدره لقبول الاغريق وكانوا لا يقبلون ورخص لهم في اقامة مدينة نوكراتيس على النيل قرب مصب كانوب فصارت جمهورية اغريقية مستقلة يختلف اليها أهل العلم واليسار من الاغريق لدراسة آثار مصر وحضارتها وكانت لا تزال برغم كوارث الدهر تبهر الناظرين

وابتنى أمازيس بمدينة ممفيس هيكل الإلهة ايزيس وزين بمدينة سايس معبد نت بصفين من أبي الهول واجتلب له من الوجه القبلي كثيراً من المسلات وهيكلاً كتلة واحدة من الغرانيت الوردي فكان هذا آخر روائع الفراعنة الذين من أصل مصري .

وفي عهد أمازيس زحفت جيوش قمبيز من آسيا على مصر لتؤدب ملك مصر على اهانة ألحقها بالفرس وفي الحقيقة انها لتتمم فتوحات سيروس

ولم يشهد امازيس كارثة بلاده فمات عند وصول الفرس الى پيلوز . وحاول ابسامتيك الثالث ولده ان يقف المغيرين فهزم في وقعة واحدة وتسلط الفرس على وادي النيل وكان ذلك سنة ٥٢٧ قبل المسيح . وترك قمبيز ابسامتيك الثالث على حكومة مصر ثم علم انه يتآمر عليه فأماته وسلم أمر البلاد الى فارسي اسمه اريانديس فصارت مصر ايالة من الايالات الفارسية ولم تسترد بعد ذلك حريتها قط

ولا نعني بالحرية ما نفهمه من معناها اليوم فمصر ما عرفت مثل حريتنا الحالية في أي دور من أدوار تاريخها . فسواء أكانت السلطة التي حكمتها دينية أم حربية ،

وطنية أم أجنبية ، فقد كانت على الدوام استبدادية . اما الاستقلال الشخصي أو العائلي، على النحو الذي نطلبه لأنفسنا أو كالذي حصلته بعض المدن القديمة والجمهوريات الايطالية الصغيرة والمدن الحرة في العصور الوسطى ، فلم تحلم به مصر ولم تطلبه

ان هذا الجنس الذي يبدو لنا غاية الغايات في عظمة اثاره لم يكن في السياسة وبغريزته الاعبداً ولكن من أولئك العبيد الذين يسودون سادتهم ويتفوقون عليهم ويأخذونهم تحت عبقريتهم .

ومن عهد قمبيز الى الساعة تقلبت على مصر سلطات مختلفة فاشتدت وطأة الفرس فالاغريق فالرومان فالعرب فالاتراك فأطاعت تلك الطاعة السلبية التي طبعت عليها من عهود كيوبس ورمسيس الا أنها بقيت هي هي تحت نير البطالسة او القياصرة لها طبيعتها الخاصة ومميزاتها وفكرتها فلم يغلبها على أمرها الاالعرب بعبقريتهم الممدينة اذ فرضوا عليها دينهم ولغتهم وفنونهم الا أنهم لم يستطيعوا تغيير الجنس في ملامحه وخواصه فبقي على ما هو عليه .

(٥) مصر في عهد الاسرات الأجنبية

جرت عادة المؤرخين ان يختموا تاريخ مصر القديم بالفتح الفارسي دلالة على ان المرتبة المصرية الحقيقيـة انتهت الى ذلك العهد . وهذا خطأ لأن المرتبة المذكورة عاشت بعد ذلك عشرة قرون .

كان هناك ما يبرر حذف هذه القرون العشرة وقت اقتصار التاريخ على ذكر الملوك وسلالاتهم وأخبار وقائعهم فاذا ما انتهوا أو انتهت وقف التـاريخ . أما اليوم ونحن ندرس الحضارة فاننا نقول أن تلك العشرة القرون التي جاءت بعد فتح قمبيز هي التي دلت اكبر دلالة على حيوية الحضارة المصرية . لانها أظهرت المقدار الذي استغرقت به هذه الحضارة امة فاتحة متحضرة كالامة الفارسية أو الاغريق أو الرومان فما وطئت أرجل هذه الامم أرض مصر حتى أخذت فنون المصريين وعبدت آلهتهم وجرت على أساليبهم مع انهم هم المقهورون . ثم أظهرت هذه المدنية حيويتها بما أقيم

على أرض مصر من الآثار الفخيمة في العهد الاجنبي ومعظمها ماثل أمام السائح الى اليوم ويعد من الاعاجيب في فن العمارة المصرية .

نقول اذن أن تاريخ مصر من الوجهة السياسية يلخص بعد الفتح الفارسي في بضعة سطور . فقد حكم الفرس مصر ثلاثة قرون.ثم جاء اسكندر فقلب أمبراطوريتهم. فدخلت مصر في حوزة البطالسة الاغريق ثلاثة قرون أخرى وماتت كليوباطرة آخر ملكة في تلك الاسرة لانها لم تذعن للامبراطور اغسطس فوقعت مصر في قبضة الرومان أربعة قرون كان في نهايتها دور تدخل النفوذ المسيحي وازالة الحضارة المصرية القديمة

وكانت سياسة جميع الحكام الاجانب في مصر ، حتى عهد المسيحية ، أخذ ديانة مصر ولغتها وفنونها فابتنوا معابد جديدة وصوروا أنفسهم بصورة الفراعين يقدمون القرابين للآلهة فاذا كان الحكام في مصر قد تغيروا يومئذ فالحضارة لم تتغير ولم يدخل الفن المصري الا بعض تحريف طفيف جاء به النفوذ الاغريقي

وترك ملوك الفرس مصر على حالتها فما ابتنوا الا القليل النادر مثل المعبد الذي اقامه دارا لآمون . أما في عهد البطالسة الذي دام ثلاثة قرون فقد ازداد كثيراً عدد الآثار الحديثة ومعظمها لا يزال باقياً كمعابد كوم امبو واسنا ودندره وادفو وجزيرة الفيلة بمصر ودكة ودبوت ودندور في النوبة ، وزهت بمصر العلوم والآداب كثيراً في عهد البطالسة بمدرسة الاسكندرية

ومضى امبراطرة الرومان على أثر البطالسة ولكنهم اكتفوا بترميم المعابد ولم ينشئوا جديداً ثم حدثت الانقسامات الدينية التي استمرت الى مجيء المسيحية وفي مدة هذه الانقسامات قام بعض المعابد أو جرى تزيينها كما فعل طيبريوس في جزيرة الفيلة وأنتونيوس في مصر أبا سنبل . ووجدت أسماء بعض الامبراطرة بالهيروغليفية على المعابد التي رمموها كنيرون وفسپازيان وماركوس أوريليوس . وصور بعضهم بلباس الفراعنة يقدم القرابين ونودوا منسوبين الى الآلهة المصرية مع لقب حكام الاقاليم العليا والسفلى وأسياد العالم وأبناء الشمس وملوك الملوك .

لقد دلت ميسرة اقتبال الحكام الاغريق والرومان للآلهة المصرية على ميزة من أهم الميزات اختصت بها الحضارات الاولى واختلفت بها عن الحضارات التي تلتها . ذلك ان آلهة الاقدمين كانت متعددة فكان لكل شعب بل لكل مدينة إلهها . ولكن الآلهة جميعاً كانت محترمة في كل مكان يدين بها حتى الغالب ولو كانت من آلهة المغلوب ، ولسنا ننكر الخير الذي جادت به المسيحية على العالم . ولكن لا ينبغي أن ننسى انها جاءت بعدم التسامح في العالم.فالحروب الدينية لطخت القرون الوسطى بالدم . والبستها الحداد ولم يعهد مثل هذا في الحضارات القديمة بل لم يخطر على بال

لم يخض العالم القديم مثل الحروب الصليبية لفتح مدينة وطرد الكافرين منها .. ان كثيراً من الفروق تفصل المدنية القديمة عن مدنية القرون الوسطى ومن اهمها فهم معنى الآلهة ومن الصعب الدلالة على ما قبله معظم المؤرخين من حطة مبدأ تعدد الآلهة عن التوحيد (هذا رأى المؤلف) . وما يجب أن نقوله .هو أن أول شكل من أشكال الفكرة الدينية علم الناس التسامح اجيالاً اما سيادة الشكل الثاني نعني عبادة الإله الواحد فقد جاءت بالتعصب المذموم الذي لم تكد تخرج الانسانية منه الى الآن

مما تقدم جميعه ندرك أنه لا معنى قط لقصر تاريخ حضارة مصر علي ماقبل الفتح الفارسي ووقفه عنده . ومن الصعب أيضاً تعيين الوقت الذي وقفت عنده تلك الحضارة وزالت . نعم ان الانحطاط جاء تدريجاً في قرنين او ثلاثة بفعل الفوضى و بتغلغل النفوذ المسيحي ولكن بقيت آلهة مصر ولغتها وفنونها فلم يقضي عليها الآ نحو سنة ٣٨٩ بعد المسيح عند ما أراد الامبراطور تيودوسيس تسهيل انتشار المسيحية فأمر بهدم معابد مصر فدكت معابد دامت على الأرض خمسة آلاف من السنين لم تفعل بها عاديات الحروب والاغارات ففعلت بها يد الدين الجديد ولم يبق منها إلاّ ما عجزت يد المتدينين الجدد عن هدمه على انهم محوا عن تلك المعابد الباقية صورة الآلهة الأقدمين

ولم يذكر مؤرخو المسيحية هذا العمل البربري ولكن هذا لا ينفي انه نقطة حالكة في التاريخ اذا انطفأ نور خمسين قرنًا من الحضارة دفعة واحدة، فلم تحطم الآلهة

القديمة وتهدم المعابد فحسب بل اقفلت المدارس وشتت العلماء والكهان وتنوسيت اللغة المصرية تناسياً جعلها في عالم المجهولات اربعة عشر قرناً . ودامت على مصر سيادة امبراطرة الشرق المسيحيين ٢٥٠ سنة وكانت من أظلم العهود على البلاد .

ويلوح لنا ان مصر ما كانت تخرج قط من تلك الظلمة لولا أن جاءها العرب سنة ٦٤٠ للميلاد فقابلهم الاهالي بالترحاب وأيقنوا بالخلاص . ولقد جاء العرب لأحفاد الفراعنة الذين أثقلتهم مظالم سادتهم بلغة جديدة ودين جديد وفنون مستحدثة قامت بها على وادي النيل حضارة اذا لم تبلغ حد الحضارة القديمة فانها القت عليها شعاعاً وضاءاً . ولسنا نتكلم عن الحضارة العربية هنا وانما نقول ان اللمحة التاريخية التي أردنا بسطها تذكرة للقارىء قد تمت ففي وسعنا الآن أن ندخل في درس الحضارة المصرية بالذات .

الفصل الثالث

اللغة المصرية والكتابة

---

(١) اللغة المصرية

ترك لنا المصريون عن انفسهم وتاريخهم ولغتهم الخاصة بهم عدداً لا يحصى من المستندات المكتوبة . و بقيت تلك المستندات مغلقة علينا الى عهد قريب فكانت اشارات الهيروغليفي المنقوش على الغرانيت أو المكتوب على البردى من الطلاسم والمعميات .

وتشمل مسألة قراءة الهيروغليفي حل أمرين الأول معرفة الكلمات الممثلة بالنقوش الهيروغليفية والثاني فهم اللغة التي تعرب عنها هذه الكلمات . أما الأمر الثاني فظهر انهُ ميسور عن الاول ، والمفروض من القديم ان اللغة القبطية الموجودة بعض انحاء مصر مشتقة من المصرية القديمة . وقد ثبت هذا بعد ذلك ووضح أن نسبة القبطية للمصرية القديمة كالايطالية للاتينية .

وأما الصعب فمعرفة الكلمات التي تمثلها نقوش الهيروغليفي . وخاصة بعد أن قال مؤلفو الاغريق ان الهيروغليفي يمثل أفكاراً لا أصواتاً من الف باء فعوضاً عن البحث عن أحرف يجب البحث عن أفكار . وهذا خطأ ولذا جعل البحث وحل المسألة فوق متناول كل انسان

وفي سنة ١٧٩٩ وجد أحد الضباط الفرنسيين حجراً في رشيد عليه بالاغريقية والهيروغليفية والقبطية المصرية تمجيد لأحد البطالسة . ودل النص الاغريقي على ان الكتابات الثلاث واحدة في اللغتين الاخريين

ثم وجدت بعد ذلك بقليل كتابة أخرى فأصبحت عند الباحثين نصوص

مصرية وترجمتها الحرفية وبقي أن تتميز الكلمات المقابلة للكلمات اليونانية والمقاطع المتقابلة في اللغتين للدلالة على نطق الهيروغليفي . واشتغل العلماء في حل هذه المسألة الشاقة وجاؤوا بعدة حلول الا أن شمبوليون وحده هو الذي اهتدى الى الصواب بعد بحث دام عشرين سنة

وكان أسهل ما في المسألة ترجمة اسماء الأعلام التي تتكرر في الغالب . فشوهد على حجر رشيد تكرار اسم بطليموس في النص الاغريقي وتكراره في النص الهيروغليفي منعزلاً عن سائره في دائرة مستطيلة فقيل لا بد أن يكون هو هو الاسم في النصين ثم قوبلت الأحرف وضوهيت لام بطليموس الهيروغليفية بلام كليوباطرة في كتابة أخرى فوضحت المشابهة وكذلك فعل بالواو في الاسمين وكان هذا بدء السير في الحل الذي استغرق بعد ذلك كما قلنا عشرين سنة .

ثم ترك شمبوليون عند وفاته سنة ١٨٣٢ اجرومية وقاموساً للمصرية القديمة فعرف الهيروغليفي كما عرفت الاغريقية والرومانية وخلد الرجل اسمه كما خلد كيوبس اسمه من قبل .

لا تتألف الكتابة الهيروغليفية برمتها من اشارات تعرب عن الفكرة نعني تمثل الاشياء بوجوهها والافكار برموزها كما ظنوا أزماناً طويلة . بل من أحرف تقرن بقليل من الاشارات الفكرية ولا تكون هذه إلا لواحق للاحرف ومعينة لها . و بديهي انا إذا استطعنا الصعود إلى أوائل عهد الكتابة المصرية لوجدناها كغيرها من الكتابات الأولية اشارات تعرب عن الأفكار لأن الناس ابتدأوا بكل مكان في تصوير أفكارهم بالرسم وكلما زاد تعقيد هذه الافكار و بعد غورها ونوعت،حل الرمز مكان التمثيل المادي ثم حلت الاشارة مكان الرمز وهي صورة مختصرة . خذ مثلاً من الهيروغليفي المصري تجد أن الشعب الفتي الساذج الافكار يعني برسم العين عضو البصر ثم يستخرج دلالاتها على اسم الفعل فاذا ما تقدم ودخلت أفكاره في العموميات دل بالعين على المعرفة و بعد النظر وما اليهما لانها أقرب الآلات الى ذلك فاذا دعته الحاجة إلى سرعة الكتابة لم يعد يرسم العين إلا دائرة ساذجة في وسطها نقطة و بهذه الكيفية تخلص المصريون القدماء كغيرهم من الرسم البحث إلى

الهيروغليفي ومن هذا الى الكتابة اليدوية وهي على نوعين (الهيراطية) التي وجدت على أقدم البرديات و(الديموطية) وهي أكثر اختصاراً ووجدت بين عهدي الاسرتين الواحدة والعشرين والخامسة والعشرين

والهيروغليفي الحقيقي كتابة للحفر والزينــة اختصت بها الآثار فتغطت بها المسلات والعمد وحوائط المعابد والقبور ونقشت في الغرانيت واضحة متعاقبة مضعفة كأنما اريد بها تضليل العين وكبح الفضول . ومعنى هيروغليفي الكتابة المقدسة وقد احتفظ الكهان بأسرارها . فلما حلت محلها في الاستعمال العادي الكتابة الدارجة ، اضطر المصريون في الاسرات الاخيرة الى جعل دراستها خاصة بالكهان والعلماء وجهلتها العوام

ولقد أبنا هنا تطور الكتابة عند المصريين وغيرهم من وجهة واحدة مستندين على أمثلة لائقة عند الامم المنعزلة عن التأثير الأجنبي فقلنا بانتقالها من الهيروغليفي الى الكتابة اليدوية السريعة وبقي أن نبين انتقالها من تصوير الفكرة الى الكتابة الصوتية او الف بائية

نعود الى المثل الذي ضربناه آنفاً في رسم العين للدلالة على اسم الفعل . ثم تقول انا اذا صعدنا الى الزمن البعيد الذي لم يكن فيه لهذا الرسم من معنى غير عضو البصر لرأينا انه مع دلالته هذه لا بد أن يكون له صوت هو صوت الكلمة التي تُعنى بها العين . والمعروف في اللغات الاولى الوحيدة المقطع ان الكلمات لا تلفظ إلا على منحى واحد فاذا ما ضوعفت بعد ذلك مثلت الكلمة المركبة فكرة مركبة محال على الغالب الاعراب عنها بالرسم أو بالمحاكاة

واذا عددنا تمثيل الكلمة بمقطعها الأول . وتمثيل هذا المقطع المؤدي لاسم شيء بصورة هذا الشيء من الطرق المختصرة التي توحي بها الغريزة ، فلا جدال في أن الاشارات تصبح مقاطع ويسهل تمثيل الكلمات المركبة بتحليلها الى مقاطع .

غير أن المصريين أرادوا الاختصار فلم يلتفتوا إلا إلى المقطع الاول من الكلمة . ثم عمدوا منعاً للتخبط واختلاط الكلمات التي تبتدىء بمقاطع واحدة إلى إضافة ملحق متمم صوتي منتزع من أهم تلفظ تلفظ به الكلمة الى الاشارة المقطعية وكانوا إذا

اقتضت الحال رسموا وجه الشيء أو رمز الفكرة وسموا الصورة صورة التعيين فنها معينات عامة وأخرى خاصة . ثم كان بين الاشارات الصوتية ما يمثل صوتاً واحداً متحركاً أو ساكناً . وكذلك صارت الف بائية . والشكل الالف بائي هو آخر شكل تام وصلت اليه الكتابة الانسانية .

ولا تستطاع رؤية تطور هذه الكتابة إلاَّ في الأربعين أو الخمسين من القرون التي شهدت عليها الآثار المقامة بوادي النيل . ويمثل هذا الدور الطويل وجهاً من أوجه الانتقال بين طرفين هما التصوير الفكري ، والكتابة الحرفيــة (الف بائية) . ولكنه لا يدلنا إلا على تقدم بطيء ، فالاشارات الصوتية بل الحرفية موجودة في أقدم مخطوطات مصر ، والكتابة بالصور والرموز تشوب الأحرف المقطعية والألف بائية في آثار حديثة العهد فالكتابة المصرية القديمة اذن غاية في التعقيد وتتألف من عدة عناصر مهمة : الأحرف المقطعية ، والأحرف الألف بائية ، والمتمات الصوتيــة والاشارات المعبرة عن الافكار ، وهي المعينات العامة أو الخاصــة للكلمات ، قليلة الوضوح أو غير التامة . و بهذا الاعتبار كان عند المصريين (٢٢) اشارة الف بائية ونحو (١٣٦) اشارة مقطعية . ويلحق بهما عدد عظيم من الاشارات المعينة . وصعوبة الكتابة المصرية جعلتها بعيدة عن جمهور الامة ومن هنا كانت قداستها . فما أعظم فخار العلماء المتأخرين الذين حلوا رموزها وكشفوا أسرارها فعرفنا لغة مصر وتاريخها .

(٢) اللغة المصرية

استعان العلماء على فهم المصرية القديمة تمام الفهم بمعونة القبطية المنسوبة إلى لغة الفراعنة كما تنسب الايطالية إلى لغة شيشرون وفرجيل

واللغة القبطية هي المصرية الفاسدة التي تكلم بها السكان المسيحيون بوادي النيل في أوائل العهد المسيحي ، والكتب الدينيــة للمسيحيين الحاليين بمصر لا تزال مكتوبة بهذه اللغة

بالقبطية والهيروغليفية توصلوا إلى إيجاد لغة مصر القديمة وعلموا أيضاً مصادرها وامهاتها . فلغات سوريا وبلاد العرب وشمال افريقية تنقسم كأهاليها إلى فرعين . الفرع السامي أو السوري العربي والفرع الحامي أو المصري المتبربر . وبين هذه اللغات جميعاً قرابة كالتي بين من يتكلمون بها . واشتقاقاتها ولهجاتها المختلفة ترجع إلى أصل واحد أولي ضاع اليوم ولكن هذه اللغات لم تبتعد عنه كل البعد

ولقد ازدادت اللغات السامية في تطورها اكثر من اللغات الحامية بشمال افريقية . وإذا وضعت اللغات الحامية في مصاف اللغات المرنة فما ذلك إلا بسبب علاقاتها الوثيقة باللهجات السامية . وبهذا الاعتبار البين توشك اللغة المصرية أن تعد بين اللغات

وكل جذور المصرية في الحقيقة ومعظم قاموسها القديم يتركب من عناصر سامية . حتى اجروميتها فيما يتعلق بتركيب المؤنثة والجمع . أما الكلمات البعيدة عن الأصل السامي فانها ترد الى ما تكلم به سود افريقية

ولم يلاحظ تغير يذكر في اللغة طول مدة الحضارة المصرية بل حصل ما يحدث غالباً عند الشعوب التي تحرز الكتابة فتثبت بهذه لغة الكلام وتؤخذ عليها حرية المضيّ إلى الامام . غير أننا نلاحظ لمصر عهداً مدرسياً (تقليدياً) كعصر لويس الرابع عشر فيما بعد عند الفرنسيس . ويشمل العهد المصري المذكور نحو الفي سنة ولكن روائعه جاءت في دورين حفلا بالتواليف القيمة، نعني عهد الاسرة الثانية عشرة وعهد الاسرتين الثامنة عشرة والعشرين . وسنرى في الفصل الخاص بأدب مصر كيف كان غنى عبقرية مصر في الشعر والعلم والفلسفة .

وبأوربا الآن الكثير مما يترجم من تواليف مصر المهمة وخصوصاً المستندات التاريخية المكتوبة بالهيروغليفي أو الهيراطي . ولا يلتفت القوم كثيراً لما كتب بالخط الديموطي لغموضه واشتماله على أعمال كالبيع والشراء والعقود وما يختص بالحياة المدنية ولها تفصيلات دقيقة مضنية . على انه سوف لا يهمل شيء من وجوه درس تلك المدنية الزاهية التي لم يعرف العالم أقوى وأمتن منها .

الفصل الرابع

المعتقدات الدينية المصرية

(١) تطور الديانة المصرية

لا يبحث المرء عند علماء الآثار المصرية على بسط أمور النظم والعادات والمعتقدات المصرية وعن قوانينها العامة وتطوراتها التاريخية. لان هؤلاء العلماء يرون أن مصر لم تتغير من جهة الفن أو الدين او النظم السياسية والاجتماعية مدة خمسة آلاف من السنين فكأنها خرجت من العدم الى الوجود توًّا متحضرة

ولا حاجة بالمرء الى معاناة حل رموز البردى ليدرك خطأ هذا الرأي. فقوانين الترقي التدريجي أساسية في الطبيعة وان جُهلت عند المؤرخين. وما معنى الحياة الاّ التغير. فما دامت مصر قد عاشت خمسة آلاف سنة فهي تغيرت. فاذا كتب تاريخها خليطاً من نصوص وآثار ونظم تفصل بينها آلاف السنين فلا مفر من الوقوع في الخطأ.

ان علماء العاديات المصرية يفعلون ما يفعله مؤرخ يجيء بعد خمسة آلاف أو ستة آلاف من السنين فيعثر بعاصمتنا الفرنسية على بعض كتب وآثار سلمت من عادي البلى فيكتب تاريخ الحضارة الفرنسية جامعاً بين النظم والمعتقدات في العصر الروماني والعصور الوسطى والعصر الحاضر فيضم (جوبيتر) الى (ڤينوس) ويقرنهما بالقديسين في القرون الوسطى ويجعل العبودية في عصر مباديء الانقلاب ولربما تساءل المرء يومئذ هل استخدم يوليوس قيصر الطرق الحديدية في تحريك جيوشه !!

ويظهر لك خطأ علماء العاديات جليًا مما يدين به أكثرهم من وجود التوحيد الاولي عند قدماء المصريين. فيكفي المرء أن يكون على شيء من العقل الفلسفي ثم يمر مراً بآثار مصر ليبدو له الخطأ الفاحش في القول بوجود الوحدانية عند قدماء أهلها

ولقد وقع في هذا الغلط مسيو (ماسپيرو) نفســه اذ قال ، وهو من كبار علماء العاديات ومن أساتذة كلية فرنسا ، في كتاب له على تاريخ الشعوب الشرقية القديمة نشر من عشر سنوات :

« وكان إله المصريين واحداً فرداً كاملاً عالماً بصيراً لا يدرك ، موجوداً بنفسه حياً حا كماً في السموات والارضين لا يحتويه شيء فهو أب الآباء وأم الامهات لايفنى ولا يغيب . يملأ الدنيا وليس له شبيه ولا حد ويوجد في كل مكان » .

وقد انتهى المسيو ماسبرو من فرط دراسته للآثار المصرية بملاحظة ما يبدو مباشرة لكل ملاحظ على غير بينة ، ولكنه بعد عشر سنوات أصبح عنده التوحيد الأولي لقدماء المصريين شركاً تاماً .

وقد قرأنا في طبعة جديدة للسفر نفسه ظهرت أخيراً : قوله « تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمان العائلة الأولى آلهته الخاصة . . . . وهذه الآلهة مقسمة الى ثلاث فرق متباينة الاصول . آلهة الموتى وآلهة العناصر والآلهة الشمسية »

أما النص الذي ذكرناه آنفاً عن الايمان التوحيدي فقد رجع اليه المؤلف ولكن في خاتمة تاريخه عن مصر ، وتبين ان الايمان الذي عده أولاً معاصراً لعهد الاهرامات لم يظهر بتاتاً الا من عصر العائلة العشرين أي بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين . ولعله اذا ظهر مؤلف جديد بعد ذلك فقد يذهب بفكرة الوحدانية ذهاباً تاماً

ان مصر القديمة لم تكن تعرف هذا الايمان الوحداني في أي عصر من عصور تاريخها . وأقطع برهان ينهض على ذلك نقوشها البارزة وصور معابدها وآثارها . وازدياد الاعتقادات الدينيـة في مصر مماثل من كل وجوهه لما جئنا بتاريخه في باب آخر من هـذا الكتاب ولما هو مصادف أيضاً لدى جميع الشعوب . وان الانسان ليستطيع ان يقلب (كتاب الاموات) وجميع أوراق البردي دون أن يعـثر على شيء يمكن أن يدله على وجود الايمان الحقيقي بآله واحد . ولا مشاحة في أن كل بلد يطلب العظمة لآلهتـه مثل ما جاء في كتب الهند من أن الاآله الذي تذكره في فقرة هو الأول دواماً ، ولكن في الفقرة التي تتحدث فيها عنه فحسب . وعلى هـذا فمصر قد عرفت الوحدة السياسية ولكنها لم تعرف بتاتاً إلهاً وطنياً واحداً .

واذا افترضنا أن بعض عقول عالية انتهت في عهد العائلات الاخيرة إلى الاعتقاد بأن الآلهة الحافلة بها المعابد لم تكن سوى مظاهر لآله واحد، فان هذا لا يؤثر فى المعتقدات العامة. وعلى هذا فليس للمؤرخ أن يعني بها. فما يسمى ديانة هو في الحقيقة تلك المذاهب التي يلقنها القساوسة ويرضى بها الشعب لا تلكم النظريات التي تمخض عنها افكار بعض السابحين في الاوهام وهم في مكاتبهم. ولا شك أنه كان هناك مفكرون أحرار في القرون الوسطى ولكن لم يكن ثمة أحد يرى أن مقتنعاتهم السرية يمكن أن تكون في ذلك العهد ديانة.

وقد أخذت الاعتقادات في مصر تتزايد مدة خمسة آلاف عام، والآلهة تتعدد وتتنافر فلا يخلف بعضها بعضاً كما كانت الحال في الهند التي تبدلت فيها الاعتقادات تبدلاً عظيما في خلال العصور مع ان فيدا القديمة ظلت كتبهم المقدسة ولكن الآيات المصرية التي جعلها قدمها منيعة الحرمة رسخت في الاعتقاد رسوخاً ظاهراً لم يكن لها من قبل

أن الاعتقادات الدينية التي ترجع في مصر الى عصور مختلفة، وكانت قد تعارضت في النصوص المقدسة، انما تأتت: أولاً من عبادة الموتى ويتبع هذا بالطبع تأليه الملوك الموتى. ويظهر ان هذه العبادة هي التي كانت سائدة في عصر الاهرامات. وقد أضيفت على هذه العبادة الاصلية، بين أزمان مختلفة، عبادة الشمس وعبادة النيل وعبادة القوى الطبيعية المختلفة. وكلما ازدادت الوحدة السياسية على توالي الاحقاب يمشي هذا الشرك الأولي الى نوع من التوحيد المحلي لا الوطني. ولكن مصر لم تدرك كل هذا التوحيد، نعني المحلي منه.

هذه هي المباديء العامة للديانة المصرية. لا يكفي مجلد فى بسط تفاصيل تطوراتها وتاريخها. ولما كان المجال لا يتسع الا لفصل واحد فسنكتفي بأن نبسط أهم ما يتعلق بهذه الديانة كما بدت لنا عند ما تكونت نهائياً، أي حوالي نهاية العائلة الاخيرة

٢ الديانة المصرية

قال هيرودوت عن المصريين انهم كانوا اكثر الناس تديناً، وعلى هذا فهم

أعظم الشعوب تديناً في القديم . وكانت الديانة عنـدهم أسوة بجميع الشرقيين وخاصة الهنود ، لها دخل في جميع أعمال حياتهم العمومية والخصوصية فيجدها الانسان حتى في الكتابات التافهة وفي الاوامر الصحية وأوامر البوليس فلا نهاية بوادي النيل لعدد الكائنات أو الأشياء المقدسة

والصيغة الأساسية لسواد الآلهـة المصرية أنها كانت آلهة محلية بحتة . فكل مديرية وكل مدينة كان لها آلهتها فكان موطن أوزيريس في أبيدوس وفتاح في ممفيس وأمون في طيبة وهوروس في ادفو وهاتور في دندره الخ . وأهمية الآله تتبع أهمية المدينة التي يعبد فيها . وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض فكانت بمثابة سلسلة مراتب اقطاعية الهية الى جانب الاقطاع السياسي . وكان يحدث أيضاً ان عدة آلهة تتفانى في بعضها فتكون إلهـًا واحداً . وكان المفترض انها تعمل أحيانًا معًا تبعًا للظروف واختصاصاتها فكان الناس يدعونها معاً أو يخلطون بين أسمائها فكان عندهم (سفيك — رع) و (فتاح — سوكاري) ويجمعون أيضاً بين ثلاثة (فتاح — سوكاري — أوزيريس)

وكان اكبرهم مصر الحياة الآجلة فهي أسوة بالهند لم تكن ترى الحياة الارضية الا ممراً وفترة حقيرة في أمد غير محدود . ولم تكن تطبق على الكون نظرية التطور الهائلة التي اكتشفها حكماء الهند ولكن كانت تعتقد أن الروح تترقى تدريجًا على توالي العصور والاجيال . ولم تكن عندهم فسحة الزمن التي بين الميلاد والموت شيئاً مذكوراً حيال الحياة الآجلة المستقبلة للكائن الانساني .

ولكي تجعل مصر هـذه الفكرة محسوسة وجدت لها تخيلاً بديعًا وهو تاريخ الشمس . فرع او آمون نهاراً واوزوريس ليلاً وجعلت الفجر ميلاداً وشفق المساء مماتًا وفي كل يوم يطرق السائح الإلهي باب الحياة خارجًا من جوف أمهِ (نوت) ويصعد بعظمة وفخار الى السماء حيث يستقل زورقًا خفيفًا وينازل ظافراً ذاك الشر وتلك الظلمات التي تفر أمامه . فكذلك وجب على الانسان في غضون وجوده القصير أن يناضل الغواية والشهوات الرديئة . أما في المساء فالليل هو الذي يظفر

حيث لا تكون الشمس رع القوي اللامع المتلألىء بل تمسي (اوزوريس) الإله الذي يحيي الليل في الظلمات وفي الموت فيمخر بزورقه السماوي ترعًا داجية ويرى أن الشياطين قد هاجمته . ويلبث حتى نصف الليل يزداد انزجاجًا في هاوية من الظلام وبعد نصف الليل يأخذ في الصعود ويكون سيره حثيثًا ميسوراً واذا ما أسفر الصباح عاد بانتصاره وجلاله

وكذلك حياة الإنسان فالموت بمثابة المساء تكتنفه فيه الظلمات وتجعله ضريبًا لاوزوريس . ولكن ميلاداً آخر وحياة جديدة تسمح له بأن يناضل أيضًا وان يقهر الشر حتى يظفر أخيراً بالراحة الابدية الخالدة بامتزاجه المعجب الفاخر بالجوهر الالهي. أو ان تثقله غلطاته أبداً فيهوي الى العدم الدائم .

هذه المعركة المتواصلة من النور ضد الظلمات ومن الآلهة ضد القوى السيئة في الطبيعة ومن الرجل ضد شهوات جسمه انما هي ادراك أدبي جوهري من الديانة المصرية جميعها . وأهم رموز هذا العراك هي الشمس التي تقشع كل يوم ظلمات الليل وكذلك النيل الذي يكتسح بفيضانه رمال الصحراء . اليس كيان مصر نفسه غزوة متوالية من نيلها ضد الرمال العاتية من الصحراء ؟ وهكذا يذهب المصريون الى ان كيان العالم خلق متوالي التجديد تقوم به الآلهة ضد مجهود روح الشر المدمر . ولم يتصوروا الشياطين بمعنى الكلمة . وقد كان (سيت) (تيفون) اليونان هو الآله الوحيد المؤذي في ميثولوجيتهم وكان شانه أقل تعقيداً في بدء الامر لأنه لما كان شقيق أوزوريس فقد هيمن على مصر في الوقت الذي كان الآلهة يحكمون بأشخاصهم في الارض وكان قد استولى حقيقة على العرش بجريته ولكن من ذلك الحين امتزج الرعب الذي كان يبعثه في النفوس ، بعبادته . وكان لهذا الآله المهاب الخشن الجانب هيا كل وديانة . وتمثله النقوش البارزة آخذاً مع هور خصمه الكريم بالعصابة التي تعصب بها رؤوس الملوك

أما رمز الشر الحقيقي المتجسد الكامل في مصر فكان الثعبان (اباب) وكان يمثل في كل مكان مقهوراً تدوسه أقدام الآلهة غير أنه ينبعث دائمًا ليمثل كل ما يجب

أن تتواصل محاربته من مثل الميول الضارة والبلايا الطبيعية ولا سيما هذه الصحرآء العميقة الخفية التى تتهيأ على الدوام لكتم أنفاس مصر بهجمات رمالها

ولا نهاية لسلسلة الآلهة تتفاوت قواها وأقدارها من الثعبان الغامض الى الشمس المنيرة التي انتهت بأن أصبحت اكثر الآلهة عباداً في مصر فسميت بأسماء (رع وأمون وهور وفتاح وتوم وازوريس) تسود في البانتيون الفسيح وتتلألأ في بهرة أفخر المعابد والمذابح الزاهية وهي الكريمة المضيئة خالقة كل حياة وسرور . وهي التي دار حولها خيال شعراء الدين بمصر فتغنوا باسمها

وعندنا عدد كبير من أناشيد مديحها منها واحد تقتطفه من كتاب الموتى : يقول

« تحية لكِ أنتِ التي تشرقين في الافق نهاراً وتجتازين السماء ان كل الوجوه مسرورة لرؤيتك »

« انكِ تظهرين صباح كل يوم فناجح مسعى كل من سار تحت قدسيتك . ومن كانت على جباههم أشعتك »

« ان لألأك لا ضريب له »

« فهل أستطيع أن اسير كما تسيرين دون وقوف مثل قدسيتك أيتها الشمس التي لا مولى عليك يا اكبر مخترقة للفضاء لا تعد ملايين ومئات الملايين من السنين عندك الا كلحظة

أنتِ تغربين ولكنك دائمة الوجود . وأنت تضاعفين الساعات والايام والليالي على السواء . وأنتِ دائمة الوجود تبعاً لقوانينك الخاصة . وأنتِ تضيئين الارض فتقدمين نفسك بيديك وأنت في شكل رع عندما تشرقين في الفضاء

أيها الكوكب الطافي على بحر الفضاء الكبير بسنائك ولألائك البهي . انك تصنعين أعضاءك وتلدين نفسك بنفسك ولو أنه لا ولادة ولا فناء . أيتها المتلألئة في أعلى السماء . للخلود أعينيني أن أتحد بالعظماء الكاملين في العالم السفلي ثم اخرج معهم لأشهد سناءك عند شروقك وفي المساء عند ما تنضمين الى أمك نوت وتولي وجهك شطر الغرب فتعبدك وترتفع اليك يداي عند غروبك في جبل الحياة »

وتدل أبيات شعرية أخرى من هذه الانشودة الرائعة على أسباب عبادة الشمس في مصر ولا ريب في أن الشمس والنيل قد خلقا مصر والجنس الذي يقطنها فمن الطبيعي جداً أن يؤلها كمعبودين . وقد عبد النيل كذلك باسم آبيس ولكنه تنازل عن مكانه للكوكب القدير الذي ظن أنه ينبعث منه كما يؤخذ هذا من النشيد الآتي :

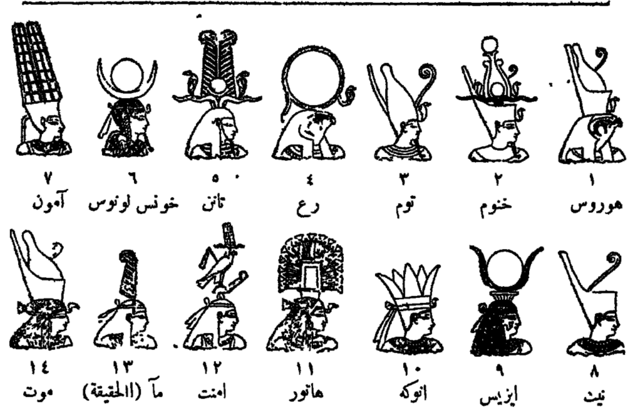
« أيها المتلألئ العظيم الخارج من نون (اللانهاية . المحيط الأصلي) انك تصون حياة الرجال بالنهر الصادر منك وانك لتجعل مجموع القساوسة والمدن والمعابد في عيد وأن بريقك ليعين على تهيئة الأغذية والأطعمة والأقوات »

ومن الميسور أن نذكر جميع القسم الثاني من الباب الخامس عشر من كتاب الموتى الذي تبدأ جميع مقطوعاته (بتحية لك) !

« تحية لك أيها السائح المنير الدائر في فلكه — تحية لك يا اكبر جميع الآلهة الخ »

إن أغلب آلهة المصريين تظهر بشكل للثالوث الأقدس . وهذا الثالوث يتألف من الأب والأم والابن وكل مدينة تعبد خاصة أحد هذه الآلهة الثلاثة ولكن هناك واحداً بينها ديانته عامة في وادي النيل هو أوزوريس وزوجته ايزيس وابنه هوروس وهذا الثالوث الأقدس كان يهيمن على الآلهة المحلية مهما كانت عظيمة وكان له معابد في كل مكان أشهرها في جزيرة أنس الوجود وكان يغشاها اكثر عدد من المؤمنين

وما كانوا يمثلون الآلهة دائماً بشكل انساني بل كانوا لا يمثلون سوى جزء من جسم الانسان يضمونه إلى جزء من جسم حيوان . وأما ظهور الآلهة فخرافة لأنه من المحال وجودهم في الحقيقة . وكان تاهوت الرسول والمعلم لشريعة الآلهة ويحاكيه اليونانيون بهرمس عندهم ممثلاً في جسم انسان ورأس أبي قردان . وكان لهوروس رأس باشق وللآلهة استارت ملكة المعارك رأس لبؤة وكانت الالهة هاتور ونوت والدة الشمس ممثلة بجسم طائر ورأس امرأة أو بجسم امرأة يعلوه رأس بقرة وكان آمون إله طيبة العظيم يبدو غالباً برأس كبش وفتاح برأس جعل وتحوت برأس أبي قردان وأنوبيس بابن آوى



ولما كان لكل مكان إلهه فله أيضاً حيوانه المقدس . على أن القدسية لا تكون له بكل مكان ، فالتمساح الذي يعبد في طيبة مثلاً كان يطارد ويقتل في جزيرة الفيلة.

ولم تك هذه الحيوانات التي يعد القط والعجل آبيس اكثرها احتراماً ، رموزاً دالة على الآلهة عند العوام بل كانت عندهم الآلهة نفسها . فأدهشت عبادة المصري الخرافية للحيوان سائر الشعوب فكتب كليمان الاسكندري قبل عبارة بوسويه المشهورة بقرون يقول « على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرائر فاذا ما تقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم اليك قسيس بوقار وهو يرتل نشيداً باللغة المصرية فيزيح قليلاً من الستار ليريك الاله . ولكنك لا ترى إلاَّ قطاً أو تمساحاً أو ثعباناً محلياً أو حيواناً مؤذياً فكأن إله المصريين دابة ملونة على بساط ارجواني . . . . . »

كان احترام هذه الحيوانات وعبادتها بالغين حدهما حتى لقد حدث في عهد بطليموس قبل أن صار حليفاً للرومانيين ، ووقت تودد المصريين الى الوافدين من إيطاليا تلافياً لوقوع الحرب ، ان قتل أحد الرومانيين قطاً فهاجمه الرعاع في بيته غير آبهين بانتقام روميه فلم ينج من العقاب ولم يشفع له أن أرسل الملك قضاته لانقاذه

قال ديودور الصقلي :

« ولم أقف على هذا الحادث بالسمع بل كنت بنفسي شاهداً عليه وقت سياحتي في مصر »

وقال هيرودوت يصف العجل آبيس الذي كان معبده في منفيس ويعتبر في جميع مصر إبناً لاوزوريس وفتاح :

« أبيس هذا عجل شاب لا تستطيع أمه أن تلد غيره . ويقول المصريون أن بريقاً يهبط من السماء عليها وأن هذا البريق ينبئها بأنه الاله أبيس . ويعرف هذا العجل ببعض علامات وشعره أسود وفي جبهته غرة مثلثة بيضاء وعلى ظهره صورة نسر وتحت لسانه صورة جعل وشعر ذيله مضاعف .

هذه العلامات على جسم العجل أبيس كان يعرفها الكهنة بملاحظات مبهمة تتناول وضع الشعرات وضعاً يمثل الاشكال المطلوبة ولو بتمثيل بعيد على نحو ما تمثل النجوم في السماء الدب أو القيثارة . . . الخ

وإذا ما مات العجل عم الحزن مصر . على ان الكهنة لا يتركونه يتخطى الخامسة والعشرين فاذا ما بلغها أغرقوه في عين ماء مخصصة للشمس فيتمثل حينئذ في أوزوريس إله الوادي المظلم وتسمى مومياه باسم اوزيريس ابيس . فخلط الاغريق بين الاسمين وقالوا سيرابيس . وتبذل العناية التامة بتحنيط جثة العجل وتوضع بجانب جثث أسلافه في مكانها الذي وجد حديثاً وسمي سيرابيوم .

ومن أهم الحيوانات المحترمة أيضاً فينكس وكانت الاساطير تزعم أنه يعود في كل نصف قرن مرة ليحرق جثة أبيه في معبد الشمس ولكن العامة على زمان هيرودوت كانت تقول في خرافاتها أنه لا يبعث بعد أن يصير رماداً ومما قاله هيرودوت أن فينكس إذا أشبه صورته لكانت أجنحته ذهبية في بعضها وحمراء في بعض آخر ثم أنه قريب الشبه في قامته وشكل جسمه بالعقاب .

وإذا أضفنا على عبادة الحيوانات السحر الذي رفعوه إلى مرتبة العلوم . والتعازيم التي تجعل الآلهة تستجيب لمن يعرفها . والرقى والتعاويذ . تمت لنا سلسلة المعتقدات المصرية بما فيها من أمور شعرية أو جافة . ومن تعمق أو سذاجة .

. وهناك أيضاً معتقدات ندل عليها . نعني الخاصة بحفظ الموتى وتحنيطهم . وتقريب القرابين المادية اليهم . والنقوش التي تحلى بها قبورهم . وفي تفصيلات هذه الامور تتجلى عبقرية مصر القديمة ممتلئة شعراً وأملاً فلا يجسر المرء على السخريه حتى من أخص ما طبع بطابع السذاجه فيها .

إذا تذكر المرء أن أعظم آثار مصر القبور المنتشرة على النيل يداعبها لعاب الشمس المتوهجة . وان أكثر ما يلفت النظر في سهولها تلك الاهرامات الممتلئـه بالموميا . أدرك حقيقة البلاد وتبطن أقصى سريرتها فبدا له أن لباب دينها عبـادة الموتى وعبادة الشمس

لقد كشفت لنا الترجمات الحديثة عن كتابها الأعلى الذي أطلق عليه لبسيوس اسم كتاب الموتى ومنه وقفنا على فكرة الأبدية ومقدار قوتها لدى شعب يجعل من مثل هذا السّفر صوراً تعد بالملايين ويضع إلى جانب كل مومياء واحداً منها كأنه جواز سفر إلى الحياة الآجلة .

وقد جاء عنه في الباب الثامن والاربعين بعد المائة :

ان الكتاب يعلي شأن الميت في أحضان رع ويحبوه السبق لدى توم ويجعله عظيماً لدى أوزيريس . قوياً لدى أمنتي ويجعله مرهوب الجانب لدى الآلهة

« وكل ميت وضع له هذا الكتاب تخرج روحه نهاراً مع الأحياء وتصعد إلى الآلهة ولا يعترضها معارض من أحد فتدنيه الآلهة منها وتلمسه لأنه شبهها ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء . هذا كتاب خفي حق لم يعلم به أحد انه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر . انه لا يراه أحد عداك ومن علمك اياه . فلا تعلق عليه تعليقات تمخض عنها مخيلتك و ذاكرتك . بل نفذ ما فيه جميعه وسط بهو التحنيط فانه سر حقيقة لا يصل اليه عامي في أي مكان . انه غذاء الميت في عالم الدنيا وقوت روحه في الارض يجعله حياً دوامًا فلا يتفوق عليه شيء»

ويحوي كتاب الموتى تعليماً للروح التي تنفصل عن الجسـد وقد ذكرت فيه جميع المحن التي يجتازها قبل أن تشاكل الآلهة . وقد حوى أيضاً جميع الكلمات السحرية التي تستعمل للمداواة وجميع الصلوات والأدعية التي يجب عليه أن يقولها

ليظفر بروح السر وليكره العشرين بابًا التي يسكن اوزوريس على أن تفتح وكذلك جميع الاعترافات التي عليه أن يدلي بها إلى القضاة الجهنميين ليحصل أخيراً على العفو وليدرك الفخار الخالد وليجري على الماء في زورق الشمس .

ولكي يكون هذا الكتاب ذا تأثير فعال يجب أن يكون جسم الميت محنطاً بعناية فان الروح لا تستطيع أن تنجو من العدم إلاّ إذا ما خلص شكلها الأرضي من الفساد والتعفن .

ويقول الميت « تحية لك يا أبي اوزيريس . لقد جئت بعد أن حنطت لحومي هذه ولن يتحلل جسمي فأنا كامل غير محسوس اسوة بأبي اوزيريس ،حبذا الذي له صورة رجل لا يتحالل جسمه »

وتوجد في الباب الرابع والخمسين بعد المائة . الذي اقتطفنا منه هذه الكلمات صيغة غريبة بشأن تحلل الاجسام تدل على أن مصر كانت على بينة من قانون تغير الاشكال الحية من ذاك الفناء والتجدد المستمر الذي دل عليه العلم الحديث وتنبأ به الهنود

تقول المومياء الشبيهة بالآلهة : « انني لا أبدو للذي لحقت به اهانة والذي تلف جسمه بالتحلل

ويعتقد المصريون ان الانسان مركب من اربع طبيعات : (الجسم) وهو يضم ظله ويبقى معه في قبره ما دام لا يتحالل . والظل يحوي (الروح) التي تمثل بعد الوفاة امام محكمة إلهية وتتيه على القرون خاضعة للمحن قبل أن تحظى بنقاسم الفخار السماوي أو تذهب إلى أعماق العدم . والروح نفسها تكون غلافاً (الذكاء) وهو الشرارة الالهية التي جعلت في الحيـاة اداة للنصح ولتقوية الروح ومساعدتها على شهوات اللحم وهذه الشرارة الالهية تترك الروح بعد الوفاة وان تتصل بها إلا للعذاب والانحاء عليها بما ارتكبت من خطايا إذا لم تكن الروح قد أطاعتها على الأرض فأثمت وأذنبت .

وفي كتاب الموتى ما يجب أن تقوله الروح عند ما تمثـل أمام محكمة أوزيريس مدافعة عما فعلت من خير وما تحاشت فعله من شر

ولهذا الباب أهمية كبرى عندنا اذ فيه خلاصة جميع القوانين الادبية للمصريين وماهية الفضائل العليا في وداي النيـــل وقد تبينا فيه ان عواطف الاحسان والشفقة والعطف التي كانت قليلة الوجود في العصر القـديم الجاف ، كانت ضرورية في مصر للحظوة برضى الموتى وغفران الآلهة .

واليك ما جاء عن تزكية الروح ، وأسماها شامبوليون بحق « اعترافاً سلبياً » وموضعها في الباب الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى :

« يا سادة الحقيقة انني حامل الحقيقة . انني لم أضر باحد ما غدراً وخيانة ولم أجعل ذوي قرباي في نـكد ولم أقم بدنيئة في موئل الحقيقة ولم تكن بيني و بين الشر مخالطة ولم أحدث الضر ولم أعمل البتة بصفتي رئيس أسرة ما يتجاوز حد عملى ، ولم يكن يترتب على عملي وجود خائف أو فقير أو متألم أو تعس . ولم أقدم على ما تأنف منه الآلهة ولم أعمل على إجاعة أحد أو ابكائه ولم أقتـــل بتاتاً ولم آمر بارتـكاب القتل بخيانة ، ولم اكذب على أي رجل ولم أسلب أبداً ذخائر المعـابد ولم أنقص أبداً المواد المخصصة ولم أسلب المومياء خبزها أو شرايطها ولم آت الفحشآء ولم ارتـكب أمراً مخجلاً مع قسيس في مركزه الديني، ولم أغل في تعيين ثمن المؤن ولم أنقص ولم أعمل للتطفيف ولم أبعـد فم الرضيع عن اللبن ولم أسرق الماشية من مرعاها ولم أصب بالشراك طيور الآلهة ولم أدفع أبداً الماء في عهد الفيضان ولم أحول مجرى ترعة ولم أطفىء الشعلة في ساعتها ولم أخدع الآلهة في قرابينها المختارة . فأنا نقي . . . أنا نقي . . . أنا نقي »

واليك في مكان آخر من هـذا الباب نفسه ما يقال عن الميت أمام المحكمة الالهية أيضاً !

(لا يوجد فيه شر ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس وليس عليه اتهام ولااعتراض فقد عاش من الحقيقة وتغذى بالحقيقة . وان القلب لمنشرح مما فعـــل وان ما فعله لما يتطلبه الرجال و يبتهج له الآلهة وقد صالح الآلهة بحبه وأعطى الخبز لمن كان جائعاً والماء لمن كان صادياً واللباس لمن كان عارياً وأعطى زورقاً لمن ليس عنده . . . .)

ألا يظن الانسان وهو يقرأ هذا الكلام انه يسمع صوت قرون سحيقة تتكلم، قبل أن يتكلم بوذا والمسيح، وتعلن قانونها اللطيف للاحسان العام ؟

واذا قبل القضاة الآلهيون صحة تزكية الميت وظهر أنه كان مخلصاً للقانون الادبي واتضح أن أهله مهروا قبره بجميع القرابين التي يجب أن يقدمها إلى الآلهة وموميائه بجميع الاحراز التي تقي الغضب السماوي. فلا بد له من احراز الفخار وهذا هو المعنى بقولهم :

« ان الميت الذي عملت من أجله كل هذه الاشياء بين الاحياء لن يصاب بأي ضرر فانه سيكون في مقام إله عظيم ولن يبيده أي شيء ضار وسيكون في عداد الكهنة الكاملين في لامنتي ولن يموت ثانية وسيأكل ويشرب كل يوم مع اوزيريس

وسيتجول مع الآلهة من الجنوب ومن الشمال ويشرب الماء من منبع النيل وسيعرف عذوبة الحب وسيخرج نهاراً مثل هوروس وسيكون حياً وسيكون كإله يعبده الأحياء مثل رع »

يرى من هذا الكلام ماذا كانت عليه عبادة الموتى عامة في مصر. ومما لا شك فيه أنها كانت سائدة في عصر تشييد الاهرامات، لان صور الآلهة كانت في ذلك الحين نادرة الوجود في النقوش البارزة بالمقابر وكان تمثيل الموتى للناظر عبارة عن تمثيل ذوي قرباهم يقدمون القرابين لاجدادهم القدماء ولمن يعبدون من الفراعنة الذين يؤلهون في الحياة، حتى إذا ما أدركهم الموت يدخلون في البانثيون الالهي، أي هيكل الآلهة. ولما كانوا معدودين بمثابة أبناء آلهة كانوا يعاملون كآلهة في حياتهم. وقد منح لقب آله لجميع ملوك مصر في حياتهم وبينهم امبراطرة الرومان في عصر حكمهم كما تدل على ذلك الكتابات.

كان الزمن عند هذا الشعب العريق في القدم غير ذي قيمة ولم يكن الموت ايضاً بجانبه سوى كلمة. فالزمن والموت الالهان المطلقان في الكون الضعيف كانا عند المصريين بواد ضيق من كوكبنا الصغير بإزاء جنس شامخ بأنفه متكبر معاند لم يشأ أبداً أن يعترف بسلطانهما. فكل شيء في وادي النيل من آثاره الخالدة الى

عاداته الخالدة الى فلسفته الدينية ، كان احتجاجاً على تلك القوانين الهائلة التي تلعب في كل مكان بالافراد والمعالم والاجناس . ان الامل الذي لا يخيب في الحياة الدائمة انما بثه في قلب مصر جريان شمسها الدائم في سمائها الصاحية وجريان نيلها الدائم خلال السهول المتألقة . فلم يعتر هذا الأمل الوهن ولم يكتنفه الغموض والاعتام . وقد تكدست الموميات قرناً بعد قرن في القبور ومصر لم يصبها النصب بتاتاً في سبيل تحنيطها واحاطتها بالقرابين وفي نسخ الأناشيد المحمسة لها من كتاب الموتى .

ثم ألم تكن مصر على حق في أن تعتقد بالخلود وهي التي مكثت عهداً طويلاً في قبرها مومياء باردة صامتة تحت أشرطتها المقدسة ثم بعثت أمام أعيننا بمعجزة من العلم لتسمعنا صوتها ولتكاشفنا بسرها وتدلنا على كيانها بقوة عبقريتها ؟

الفصل الخامس

النظم والاخلاق والعادات المصرية

(١) النظم السياسية والاجتماعية

مصر منفصلة عن باقي العالم بالبحر و بالصحاري . وقد غالت مدة قرون طويلة في انفصالها بأن حرمت على الاجانب هبوط أرضها ، وعلى هذا تحتم عليها أن تنمو بنفسها دون اساتذة ولعل مدنيتها هي الوحيدة التي لم تكتسب من مدنية أخرى شيئًا

ولسنا ندري شيئًا من أشكال نمو مصر الأولية ، اذ لم يبق منها أي أثر يمكن أن نستطلع منــه سراً ، فما كانت الشهود على تلك العصور الغابرة الاَّ رمال الصحراء ، والرمال لا تتكلم .

وعندما ظهرت المدنية المصرية فجأة في التاريخ منذ ستة آلاف أو سبعة آلاف من السنين دلت آثارها ولغتها وفنونها على أنها أقدم من ذلك بكثير . فليس فجرها اذن هو الذي يبدو لنا بل تتويجها .

لما ابتدأ تاريخ مصر كانت لها تقاليد دينية ثابتة بالكتابة وكانت لها نظم سياسية واجتماعية ترجع الى ماضٍ طويل وقد وصفناها في باب آخر من هذا الـكتاب وقلنا أنها الفترة التي تبقى خلالها الشعوب المنفصلة عن العالم محتجزة في تقاليدها فلا تتطور الاَّ ببطء كبير .

وقد تطورت مصر وتغيرت كثيراً أبان الخمسة الآلاف من السنين التي عرفنا تاريخها ، وحدثت هذه التغييرات ببطء كبير يصعب تمييزه لما وقر في الاذهان من القدم عن رسوخ نظمها ومعتقداتها وفنونها .

وليس من الهين أن ندل بما نملك اليوم من المستندات القليلة على تفصيلات تطور النظم السياسية والاجتماعية الا اننا نبين اكبر اوجه التغيير فنقول :

مرت حكومة مصر في الأدوار التي تجتازها جميع الحكومات عادة . فقد كانت أولاً تيوقراطية ثم اقطاعية ثم اصبحت في العصر الحربي ملكية استبدادية .

وخرافة الحكومة الأولية للآلهة في وادي النيل تكفي في الدلالة على ان السلطة كانت اولاً في هيئة الكهنة ثم ان الاعتقاد بأن قوانينهم القديمة كانت منزلة عليهم من السماء جعل المصريين يغلون في احترام خرافات هذه القوانين حتى عدوا ملوكهم خلفاء للآلهة فعبدوهم في حياتهم وفي مماتهم .

وقد تستطيع أن تتصور هؤلاء الآلهة الذين تعترف لهم مصر بالجميل في مدنيتها ومدنها الاولى وسائر شؤونها وقوانينها القديمة بمثابة رجال أذكياء ذوي نشاط يحاكون جميع الابطال وانصاف الآلهة الذين نلقاهم دائماً في تاريخ أصول كل شعب فيؤلهم الناس فاذا ماتوا أقاموا لهم الهياكل تخدمها الكهان وبديهي أن أمثال هؤلاء لا يقيمون قوانينهم الا على السلطة الالهية ومن ثم وصلت سلطتهم الى الكهنة الذين يتكلمون باسمهم وهكذا نشأ الحكم التيوقراطي في مصر كما نشأ بغيرها في أول جميع المدنيات .

وظل هذا الحكم طويلاً في هذا البلد ببطء تغيره ، ويمكن القول أيضاً بأنه بقي موجود الأثر حتى عصور الملكية المطلقة لأن الفراعنة لم يتحرروا قط من نظام الكهنة

قال ديودور : « لم يكن الملوك يعيشون عيشة حرة مستقلة كغيرهم من ملوك الامم الاخرى اذ لم يكن في وسعهم قط أن يتصرفوا حسب أهوائهم . فكل شيء كان محدوداً بالقوانين لا في حياتهم العامة فحسب بل في حياتهم الخصوصية اليومية كذلك ، ولم يكن يقوم على خدمتهم رجال أجراء أو أرقاء بل أبناء القساوسة الأول الذين تربوا بعناية كبرى وجاوزوا العشرين من أعمارهم وبهذه الطريقة يكون حول الملك ليل نهار ممن يخدمون شخصه نماذج حقيقية للفضيلة فلا يستطيع أن يقوم على عمل مذموم »

وهؤلاء « النماذج الحقيقية للفضيلة » الذين يتحدث عنهم ديودور بسذاجة كانوا قبل كل شيء مرشدين وجواسيس يضعهم القساوسة ذووا الحول والقوة حول الملك فكانت السلطة الصحيحة والقوة الحقيقية صادرة من الهياكل المظلمة الصامتة

الرهيبة حيث يكون الآله المرئي انساناً متبوئاً العرش على رأسه التاج المزدوج للوجهين القبلي والبحري تحوطه الطاعة السلبية والاحترام الاستعبادي التام. وعليه أن ينحني أمام أجداده العظماء وأمام كبار المشرعين الالهيين في مصر بل أمام الكهنة ومن تقل عنهم ومثلهم

وكانت مصر في عهد التيوقراطية الاولى منقسمة الى مديريات صغيرة تماثل ما قسمت اليه فيما بعد. وكان لكل مديرية أو اقليم عاصمة ورئيسه ومعبده وآلهته. وكثيراً ما تثور منافسات تتحول غالباً الى عدآء بين أمهات العواصم في مصر وتدوم فترة تاريخها كله، فلم تكن الوحدة من هذه الجهة أبداً حقيقية. ومهما كانت اللحمة بين الاقاليم قوية أحياناً، ومرافقها الكبرى العمومية مشتركة، فان كل اقليم كان محتفظاً بعاداته وبحكومته الوراثية وبقسه الكبير وبمعبده وبآلهته وأعياده الخاصة. فكانت المدن الشهيرة كايليفنتين وطيبة وممفيس وتنيس تتنازع دائماً الاولوية وتضمر كل واحدة للأخرى تنافساً خشناً يقرب كثيراً من الحقد.

قال هيرودوت « ان الرجل الاول الذي حكم في مصر هو مينا » فكان اذن اول من جمع هذه الأقاليم الصغيرة تحت سلطان واحد وجعل لها الوحدة الظاهرية. وابتدأت على عهده الاسرات ولكن لم تأت بعد الملكية المطلقة فبدت لنا مصر من حكم مينا حتى طرد الهيكسوس ذات نظام اقطاعي تام. ثم كان من نتائج المجهود المشترك الذي أنقذ البلد من المغيرين عليها، والفتوحات التي ابتدأت مع العائلة الثامنة عشرة، ان اشتد ساعد الحكومة المركزية فأصبحت مصر مملكة مطلقة.

وكانت الاقطاعية المصرية محاكية لمثيلتها التي وجدت في أوروبا مدة القرون الوسطى. فكان الملك فيها الرئيس الأعلى للجيش، يهرع الى ندائه أمراء الاقاليم تتبعهم الصغيرة والكبيرة من سفنهم، ومفروض عليهم الملك الخدمة الحربية والقيام باتمام الاعمال العمومية التي ينفذونها برجال من رعاياهم سخرة حقيقية. وكانت صيانة الترع الهم الدائم للسلطة المركزية فتطالب رؤساء الاقاليم بضرائب على السفن، وبأيام تعمل فيها رعاياهم مقابل الحماية واجراء العدل. وهذا كله مثل ما كان عليه البابوات نا ميجيون في حكم هوج كابت أو فيليب أوجست

واذا كانت الحركة الوطنية التي قامت بها جان دارك ، وقضت باخراج الانكليز من فرنسا وأعقبتها الحروب الخارجية في ايطاليا ، قد دمرت الاقطاعية في أوروبا وعززت جانب الملكية ، فهذا شبيه بما جرى في مصر اذ أدى طرد الهكسوس وأدت الفتوحات الأولى في آسيا الى دمار الاقطاعية المصرية . ومن هذا الحين أصبحت الملكية المطلقة في وادي النيل ، ولكن بشيء من الرقابة الدينية

وكان العرش وراثياً . فاذا لم يكن ثم ولد تبوأه ابن الأخ أو ابن العم أو الادنى من ذوي القربى . ويشمل هذا النساء أيضاً ، فكن يحملن التاج كالرجال ويحظن باكبر حظ من التكريم والاحترام .

قال ديودور الصقلي : « ان الملكة كانت تنال من السلطة والتكريم اكثر مما ينال الملك » وعنده أن هذه العادة ترجع الى الذكرى التي خلفها في مصر الحكم المجيد للآلهة ايزيس .

كان من مهام الملك الادارة العليا للجيش وللقضاء وللاشغال العمومية ، وكان أيضاً رأس الديانة ، فاذا وجد بأي مكان فهو الذي يقيم صلاة القداس بالنيابة عن القس الاكبر ويحل محله في اتمام بعض المراسم . وهو وحده المرخص له بفتح النواويس بمكان الآلهة ليشهد السر وجهاً لوجه . ولما كان نفسه إلهاً فقد كان يعبد صورته . وقد أرتنا النقوش البارزة رمسيساً الثاني يعبد نفسه ويحاط الملوك بتبجيل عظيم وتكريم فوق العادة ، فرجال البلاط غاية في سمو المرتبة والتدريب وجميعهم من دم ملكي أولاد الكهان ومن أرفع طبقات الاريستوقراطية

كان المصريون يحبون سيدهم ويحترمونه لانه أبوهم وشقيق آلهتهم ومنبع كل فضيلة وكل عدل . فلا يخدع ولا يأثم . ومن المراسم في كل يوم تبعاً للقاعدة المرعية أن يقوم الكاهن الكبير أمام الملك معدداً فضائله في المعبد ويصوره بما يجب أن يكون عليه ولا يستطيع أن يدلي اليه بنصح الا بطريق المديح والثناء

قال ديودور الصقلي : « وقد كان هناك وقت محدد للجلسات والاحكام وللسمر ولكل عمل من أعمال الحياة »

وقد صور لنا المؤرخ اليوناني الحب البنوي الخالص الذي يشعر به المصريون نحو ملكهم والحداد العام الذي يعقب وفاة الملك .

قال في هذا الصدد : عندما تفيض روح الملك يحد عليه جميع السكان ، فيمزقون ثيابهم ويغلقون المعابد ويكفون عن القرابين ولا يقيمون أي احتفال مدة اثنين وسبعين يوماً

وتكلم المؤلف نفسه عن عادة خاصةبمحاكمة الملك الميت قبل مواراته في الرمس فيجتمع الشعب ليصغى لمديح الفقيد ثم يقابل هذا المديح بهتاف أو بتمتمة تبعاً لما يكون من صحة انطباق المدح أو الخطأ فيه . فاذا كان المدح في غير موضعه فلا تدخل موميا الملك المقبرة ولا المعبد . غير أن الملوك على العموم كانوا لا يحرمون اللحد الا على مغتصبي عروشهم وفي إبان الحروب الاهلية . ولكن لسنا ندري كيف أمكن للشعب المصري أن يحاكم ويعاقب ذلك الاآه الذى كان يحبه كأب ويعبده كاله . .

ويؤخذ عن ديودور ان الملك لم يكن يستطيع أن يحكم مباشرة بلاده الكثيرة ، وفي مصر اذ ذاك نحو ثلاثين الف مدينة . فكان يستعمل عليها محافظين من الجهات اختلف في عددهم . فقد أحصى ديودور واسترابون ستاً وثلاثين محافظة ، وبأتيوبيا بلغ العدد أربعاً وأربعين ، منها اثنتان وعشرون في الوجه البحري وهي تماثل نظام الاقطاعية فى طراز حكمها

وكان المحافظون من عظماء الجهات تجمعهم رابطة دم الاسرة المالكة ، وكانوا يقيمون في عواصم الجهات ويتولون ادارة نوعي الاراضي من زراعية ومنافع ، فمن الاولي يحصلون على الغلال ومن الثانية على النباتات المائية وأوراق البردي واللوتس الصالح للحريق وكميات كبيرة من الاسماك والطيور المائية

والملك يتقاضى عن جميع هذه الثروات الناتجة الضرائب الملكية وهي تكون في الغالب من أنواع الحاصلات

وقد كانت الضرائب في كل زمن باهظة في مصر وهي المورد الاساسي للخزانة الملكية ، ويزيدها دخل المناجم والجزية من الاصقاع التى افتتحت وأخضعت

والى جانب المحافظ القس الكبير وله كرامة عظيمة ، ولكن سلطته محدودة

ولكل عاصمة مدرستها الكهنوتية والسلطة فيها درجات ورئيسها المطلق هو القس الاكبر وهو يشرف على ادارة الاملاك الدينية ويحصل على الدخل وينفقه في اقامة العبادة ويليه الآباء الالهيون والمطهرون والموسيقيون والمنشدون وحملة البخور الخ . والاكليروس كثير العدد وللنساء أن يقمن ببعض المراسم الدينية . والملكات والاميرات يقمن صلاة القداس الى جانب الملك ولكن خدم المعابد من النساء هن عموماً من النادبات والراقصات والمنشدات المقدسات .

يرى مما مر أن الحكومة المصرية بالرغم من استبداد السلطة الملكية لم تكن بتاتاً مركزية فقد كان لكل جهة رؤساؤها وادارتها الخاصة . ومع هذا فقد كان الفراعنة في الاعتبار باسطين سلطتهم على كل شيء واسماؤهم وتواريخهم على جميع الاوراق الادارية والقضائية حتى المدنية فجميع الامور ترفع اليهم وبوادي النيل الكثير من الكتبة الملكيين الذين يسجلون للملك اعمال رسله وافراد رعيته ولم تكن الاشغال المكتبية متسعة في أي بلد مثلها في مصر .

وكانت هناك مجموعة رسمية اسمها : (كتاب المدن الواقعة في مصر وجميع ما يتعلق بها) يتضمن هذا الكتاب وصفاً دقيقاً للآثار وعدد السكان ومواردهم وأملاك المعبد واسماء القساوسة والقضاة الخ

ولا بد أنهم كانوا ينقحون هذا الكتاب على توالي السنين كما تنقح أيضاً مسائح الاراضي وبين أيدينا كثير من المستندات الادارية المصرية وتقارير البوليس والمراسلات الرسمية الخ ترينا كيف كان الاشتغال بالكتابة دقيقاً كثير الرسميات .

ولقد تحدثوا كثيراً عن الطوائف في مصر على أن الكلمة ليست صحيحة بالمرة اذ لم يكن يوجد بوادي النيل طبقات اجتماعية تامة العزلة تفصل بينها الفروق كالتي في الهند مثلاً بل كانت المهن المختلفة تضم جماعات المحترفين بها ولم تكن وراثية محتمة . أما الوظائف العليا لرجال الحرب والقساوسة فقد جعلت ارستوقراطية حقيقية يمكن أن تشبه بارستوقراطية السيف والثوب في فرنسا ولكنها لم تكن طوائف خاصة اذ كان يستطيع كل إنسان أن يسمو اليها وكان الجندي في زمن السلم يؤدي عملاً

ملكياً . ولم تخلق في مصر القاب شرف حقيقية الا بالتعليم فقد كان مطلوباً من كل من يطمع في الحصول على اعمال في الادارة او الجيش وكانت تجري امتحانات للدرجات المختلفة مماثلة للبكالوريا وللدكتوراه عندنا .

كتب بنتاؤور رئيس سجلات القصر الملكي لتلميذه يقول :

« الرجل الذي ليس له قلب ينصرف الى الاشغال اليدوية ويكد فيها عينيه ولكن الذي يدرك قيمة الآداب والعلوم ويمارسها يعلو على أهل الخطر ورجال الزلفى في البلاط فتعلم هذا حق العلم »

وكان لقب الكاتب تسمية عامة تطلق على المتعلمين وعلى كل عظيم عنده خزانة كتبه وأمينها ولكن التبحر في العلم كان قاصراً على طبقة القساوسة .

ولم تتفق كلمة المؤرخين الاقدمين على عدد الطوائف أو الطبقات في مصر فقد جعلها هيرودوت سبعاً وهي : القساوسة وأهل الحرب والزراع والرعاة والتجار والمترجمون ورؤساء البوغاز ولكن ريدورا لم يعرف منها سوى خمس وهي : القساوسة والمحاربون والرعاة والزراع والصناع .

والخلاف انما يقع على الاهالي الملكيين فقد قسموا الى طبقات بعدد المهن التي يحترفونها وهناك فرق اجتماعي يفرق بعض التفرقة بين أهل الارياف وأهل المدن وكان بعض الطوائف في المدن لا تتخالط فتقطن الطوائف أحياء مختلفة

وكانت طبقة الدينيين والمحاربين متمتعة في مصر بامتيازات خاصة فلهما وحدهما مع الملك الحق في امتلاك أراضٍ ولا يكون الزراع حتى الموسرين منهم الا مستأجرين وكانت أراضي وادي النيل منقسمة الى ثلاثة أجزاء : ثلث يملكه الملك وثلث للحربيين وثلث للكهنة .

ولهيئة الكهنوت اتحاد وترتيب ونفوذ أدبي عظيم . فالكهنة بازاء الاهالي أمثلة الفضائل التي يدعون اليها . ومن اول صفاتهم النظامية العلم والورع والقناعة والنظافة فلباسهم ثياب الكتان فاذا زخرف دل هذا على مركزهم الكهنوتي وكانوا يحملون نائباً على اكتافهم جلد الفهد .

وحرمت عليهم بعض الأغذية كالسمك ولحم الخنزير ومعظم المصريين

لا يأكلون الخنزير ويعدون رعاته من طبقة نجسة . ولكن يتحتم وجود الخنزير في بعض الحفلات الدينية

ولم يكن في عهد الامبراطورية القديمة طبقة لرجال الحرب بمعنى الكلمة فبعد انقضاء الحرب يعود الجنود الى الحياة الملكية ثم تألف الجيش نظامياً بعد طرد الهكسوس وفي عهد الفتوحات شيئاً فشيئاً وأصبح دائماً .

وللرجل المندمج في الطبقة الحربية الحق في امتلاك أرض يعينه دخلها على تجهيز نفسه فيجب أن يعد أسلحته وعتاده وكان للملك حرس خاص يؤلف من الفي رجل يغيرون كل سنة وينقدون اجرة الخدمة من الخزانة . أما الجنود الاجانب الاجراء فلا يملكون شيئاً من الاراضي ولكنهم يعطون أسلحتهم وملابسهم الوطنية وكان عددهم في اول الامر قليلاً في الجيش المصري وكان الاهالي يحتقرونهم ثم أخذوا يزيدون شيئاً فشيئاً في الاهمية وقد ميزهم وأعزهم خاصة بسامتيك وأعقابه

وقد قسم هيرودوت جميع الجنود المصريين الى فئتين وهما الكالازيري والهرموتيبي وقدر مجموع عددهم باربعمائة الف وعشرة آلاف رجل وقال : « لم يكن مسموحاً لهم بمزاولة مهنة أخرى سوى الحرب والابن يخلف أباه فيها »

وكان الشأن كذلك ايضاً في عصر المؤرخ اليوناني ذاك العصر الحربي الكبير عصر تألف الجيش من طائفة أخذت تنفصل شيئاً فشيئاً عن الامة .

ومن الامتيازات التي كان الحربيون ممتعين بها انهم لا يسجنون من جراء الديون لأنهم ملك للملك ولا يمكن أن يحال بينهم وبين تلبية ندائه .

وتبتدىء التربية الحربية منذ الصغر قال ديودور :

« كانوا يعنون بجمع الصغار وكانوا يعودونهم على تمرينات دائمة وعلى اتعاب أجسامهم ولا يجوز لواحد منهم أن يتناول الغذاء الا بعد أن يقطع ثمانية عشر كيلومتراً تقريباً في السباق »

يحصل ابناء الجيش المصري على أكلهم البسيطة بكل مشقة ففي جملة تعويدهم الاصابة في الرماية عن القوس . وكانت أطعمة الافطار ترفع لهم على أهداف عالية فاذا ما استطاعوا تحويلها بالسهم عن مكانها أخذوها والا فلا . وجميع هذه التمرينات

يدأب عليها الجندي في زمن السلم ثم يدرب بالتوالي على مختلف الحركات وعلى ما نسميه في أيامنا بالمناورات من هجوم ودفاع وحصر .

ويؤلف الجيش من مشاة ثقيلة ومشاة خفيفة ومن فرسان كذلك . والفرسان هنا هم الذين يركبون المركبات الحربية إذ لم يكن لمصر فرسان بمعنى الكلمة إلا في الأزمان الاخيرة ومع هذا فقد قال موسى عن الجيش المصري عند ما عبر بالاسرائيليين البحر الاحمر :

« ان المولى قد أردى في البحر الجواد وفارسه »

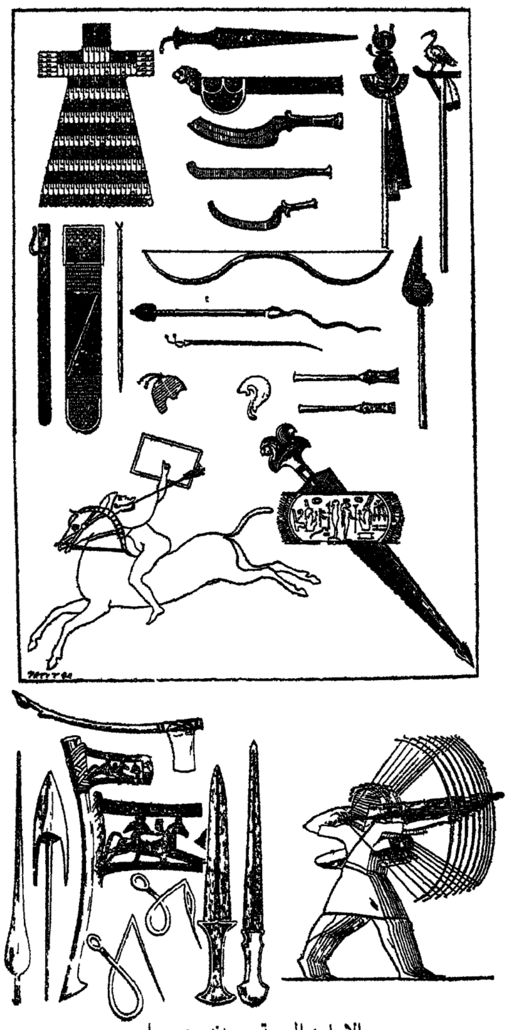
وكانت قوة الجيش المصري في شراذمه من المشاة المسلحين بالرماح والتروس وقد تعذر على الاعجام قهر أحد المربعات التي كانت في جيش كريسوس بالرغم من انتصارهم

كان الجيش المصري اذن قوياً جيد التعليم والدربة مزوداً بأسلحة دفاعية وهجومية من خير أسلحة ذلك الزمن فمنها الخوذ والدروع والتروس والرماح والسيوف والمزاريق والاقواس والسهام والدبابيس والمقاليع وكان عندهم من آلات الموسيقى البوق والطبل وعلى رأس كل ألاي علامة رئيسه محمولة على عود رمح فهي علم يعهد به لأشجع رجل يذب عنه بكل شدة وتمثـل العلامة وجه حيوان أو أي شيء مماثل له كما كانت علامات الحروب الصليبية في تاريخ قروننا الوسطى وكان للملك أعلام حقيقية يحملها امراء من البيت المالك حوله لا في الحرب فحسب بل في الاحتفالات الكبرى ايضاً مع المراوح الطويلة من ريش النعام ،

ولم يكن لمصر بحرية حربية بمعنى الكلمة فالأساطيل التي أعدتها بعد ذلك كان جنودها من الجنود البريين .

ويقسم الاهالي المالكيون الى جماعات لها اسماء مختلفة وأهمها هيئة كتاب الملك والمزارعون لأن مصر عنت اكبر عناية بالزرع وأخذ بأسبابه ملوكها فكثيراً ما صوروا ويدهم على المحراث تشجيعاً للزراع .

وليس لمستأجري الاراضي ملكية عليها وانما يضعون يدهم في مقابل الدخل الذي يدفعونه لصاحبها سواء كان الملك أم القسيس أم الجندي .



الاسلحه المصرية من اقدم عصرها

وللرعاة واصحاب السفن النيلية طوائف مهمة فقد كان النيل في مصر الطريق الوحيد للمواصلات الكبرى ومن هنا جاءت أهمية الملاحين وفي مقدمتهم خاصة اولئك الذين كانوا يأتون من أقصى مصر بالاحجار الهائلة والأعمدة العظيمة على السفن الى طيبة وممفيس وغيرها .

ولم تكن الصنائع في مصر وراثية الا أن التغليب جعل الابناء يأخذون بمهن آبائهم وقد استحسن ديودور هذه العادة التي تزيد في المهارة الخاصة بكل فئة فقال في هذا الصدد :

« انهم يضيفون الى ما كسبوه من المعرفة بالوراثة عن آبائهم اتقانًا جديداً »

وأشار ديودور الى قانون يحرم على الصناع الاشتغال بالسياسة قال :

« ان مصر هو البلد الوحيد الذي لا يجوز فيه للعامل أن يقوم بعمل عمومي أو أن يمارس حالة أخرى غير التي حددت له في القوانين أو التي أخذها عن أهله وبهذا التقييد لا يتحول العامل عن مزاولة اعماله . ولا ينصرف الى الاشتغال بالسياسة واذا كان في الأمم الأخرى صناع ينهمكون خاصة في فكرة جني الثروة فينقطع بعضهم الى الزراعة وبعضهم الى التجارة أو يمارسون مهنتين أو ثلاثًا معًا أو يهرعون كما في البلاد الديموقراطية الى الجمعيات الشعبية فيحدثون فيها الخلل والاضطراب ببيع أصواتهم في الانتخابات . فقد كان الصانع عند المصريين لا يشترك في الأعمال العمومية ولا يمارس عدة مهن في وقت واحد والا كان عرضة لغرامة باهظة »

أما الاعمال الشديدة المشقة كأعمال المناجم وتشييد الاهرامات ونقل الاحجار فقد كان يتولاها أسرى الحرب والارقاء ويرسل المجرمون عادة الى المناجم لمواصلة عملهم بلا انقطاع والا أصابتهم عصا الرقيب .

ويظهر ان الرق كان له وجود في كل زمن بمصر فيجلب الارقاء البيض من الخارج كما كان أمر يوسف ويجاب السود بالقبض عليهم في أعالي النيل وهناك رقيق الحرب وكان يباع ويشرى دون خفاء . وعند ما فتحت مصر للأمم المجاورة وتغلب النفوذ الآسيوي شيئًا فشيئًا جيء الى مصر بنساء جميلات من الشرق فتبدلت

الأخلاق اليابسة في مصر القديمة ونشأ الحرم الفاخر في آخر عهد الفراعنة وتعددت زوجات الخاصة من جراء الاحتكاك بين مصر الجافة المتقشفة و بين آسيا مهد اللذات .

هذا التغير في الاخلاق هو علة تناقض المؤرخين في موضوع العدد المسموح به من الزوجات عند المصريين فقد جعله هيرودوت زوجة واحدة فقال « لم يكن للواحد منهم سوى زوجة واحدة مثل اليونانيين » وقال ديودور من جهة أخرى : « كانت الزوجة الواحدة عند الكهنة أما سائر الافراد فكانوا يختارون من النساء من يشاؤون »

ولا يخفى ان هناك اربعمائة سنة بين هيرودوت وديودور فيمكن القول اذن بأن الأول وقف على العادات القديمة التي تزعزعت أو اندثرت في عصر الثاني . وجميع الآثار القديمة والقبور تؤيد رأي هيرودوت . واذا كان المصريون تسروا وعاشروا من الرقيقات الجميلات البيض أو السود اللواتي كن يخدمنهم في بيوتهم فقد كان للزوجة الشرعية التي من جنسهم حقوقاً خاصة سندرسها عند النظر الى قوانينهم وعقودهم . أما الفرق من جهة الأولاد فغير موجود فقد كانوا كما في تركيا الحالية ابناء شرعيين يستوي في ذلك ابن الزوجة وابن الأمة حتى في التربية والميراث . وكانت تربية الولد في وادي النيل قليلة النفقة لقلة الملبس اللازم في الجو المعتدل و بساطة الغذاء واليك ما قاله ديودور الصقلي في هذا الصدد :

« يدبر المصريون أولادهم بما لا يعد في حكم النفقة فأغذيتهم سوق البردي و بعض الجذور مسلوقة أو مشوية . و يتركون الأولاد بدون أحذية و بلا ملابس بسبب اعتدال المناخ فالنفقة اذن لا تكاد تزيد على عشرين درهماً حتى سن الادراك »

واذا نظرنا الى مصر القديمة بما كان لها من أخلاق ذاتية وعبقرية خاصة قبل أن تأخذ بأي نمط من جاراتها . لرأينا للمرأة فيها مكانة علية ويمكن أن يعزى هذا الى تأثير الأمومة الأولية التي وجدت آثارها حتى عهد الامبراطورية الوسطى .

وفي النقوش البارزة في كتابات ذلك العهد نرى أيضاً أن الجدة من جهة الأم

تتقدم في سيرها على جميع أفراد الاسرة وكان الرجل يقول أنه « ولد أمه » لا « ولد أبيه » وكانت النساء تتولين العرش وتصبن من الاجلال والتكريم اكثر مما يصيب الملك وكان يناط بالبنات تغذية أهليهن اذا طعنوا في السن . ولا يطلب الى الابناء القيام بمثل هذا العمل ، وهذا دليل على ان النساء وحدهن لبثن زمناً طويلاً يملكن ويرثن

وكانت المرأة تتناول بعقد زواجها مهراً من زوجها وهذا المهر يضمن بشبه رهن دائم على أملاك الزوج بالدفع فان حقوق الزوجة على الاملاك تقدم على حقوق بيت المال

كانت المرأة سيدة مطلقة في بيتها وقد قال ديودور نفسه الذي عاش في مصر في عهد اضمحلال عادتها القديمة :

« كانت الملكة تنال من الاحترام والقوة اكثر مما ينال الملك وكان الرجل عند الخاصة ملكاً للمرأة وقد نص في شروط عقد الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة »

وقال هيردوت في موضع آخر :

« كانت النساء لدى المصريين تذهبن الى السوق وتتفرغن للتجارة والرجال في منازلهم يشتغلون بالنسيج »

ولقد جئت في ما سبق بأهم أقوال المؤلفين الاغريق عن مكانة النساء في مصر وألاحظ أن هذه الاقوال انما كتبت في عصر أدركت فيه مصر أعلى درجة من المدنية وليس ببعيد أن تكون حالهن في العصور المتقدمة على غير هذا من الرفعة ولكن ليس لدينا المستندات التي تسمح لنا بأن نعين هذا ونحدده ولكننا نستطيع أن نقف من الاقاصيص الخرافية التى جاء بها هيرودوت على آثار عصر كانت حالة النساء فيه كثيرة الشبه بحالتهن عند الجماعات الأولى التي مر وصفها في (مقدمة الحضارات) . هذه الاقاصيص تعبر باخلاص وأمانة عن الشعور الشعبي وتبرهن على ان مصر ما كانت تعني كأغاب الشعوب الاولية كبير عناية بفضيلة النساء

ومن أغرب القصص التي نقلها في هذا الصدد قسوس مصريون وأخذها عنهم

هيرودوت. ان الملك كيوبس مؤسس الاهرام الكبيرة لما أعوزه المال لاتمامه أرسل، — كاليابانيين في أيامنا هذه — ابنته الى بيت خنا لتجمع المال ببيع العرض

ولم يكن هذا الغرض وحده، نعني كسب ما يتم به بناء الاهرامات، هو الذي حمل الفراعنة على دفع بناتهم الى مثل هذه المواخير كما جاء في تلك الاقاصيص، بل كانوا يرسلونهن اليها لاسباب تافهة. فقد روى لنا هيرودوت أن فرعون آخر رغب في أن يقف على أثر لص يسرق كنزاً فلم يجد حيلة اكبر من أن يرسل ابنته تعرض نفسها على كل آتٍ حتى تستجلي من عشاقها الذين يبرون بها أسرارهم رجاء أن يكون بينهم المجرم. على أن مثل هذه الاقاصيص، وان بُولغ فيها، فلها شبه ظل من الحقيقة على الاقل لانها تقرب مما عرف عن جميع الجماعات الاولية.

يلوح لنا أن الاخلاق المصرية القديمة لم تكن غاية في القسوة، اذ كان من الامور المتعذرة أن يصادف الانسان امرأة لم تخدع زوجها. ويؤخذ هذا اذا صح من قصة خرافية أخرى مؤداها أن نجل سيزوستريس عندما فقد بصره وأنبأه الوحي بأنه لن يشفى الا اذا عرك عينيه برضاب امرأة لم تخدع زوجها قط. تجشم عناء كبيراً في الظفر بمصرية يتوفر فيها هذا الشرط ووجد أن امرأته نفسها لا تحقق هذا الرجاء. فلما أعيته التجربة جمع النساء اللاتي جرب فضيلتهن ثم أعمل فيهن النار. وقد نذكر أيضاً ما قاله ذلك الحكيم القديم الذي وصف المرأة المصرية في الفصل الادبي من ورقة بردي (بريس) ويرد عهدها الى خمسة آلاف سنة، اذ قال عنها: « انها رزمة من جميع الخبائث وكيس مملوءة بجميع أنواع اللؤم ».

ولقد كانت الحرية الشخصية مجهولة في مصر مثلها في جميع الهيئات الاجتماعية القديمة. فكان الصانع محتجزاً في طائفة ذات درجات أسوة بجميع الفئات الاجتماعية في وادي النيل، وكان له رؤساؤه ونظامه وسلطانه وقَسَمُه. وكان الفلاح مرتبطاً بالارض ومن المحظور عليه الخروج من مصر، ولم يكن في استطاعته التجول فيها الا بترخيص، وكانت حياة الحواريين والقساوسة منظمة بطريقة شديدة

ولا تسوغ العطلة لأحد. فكل ملزم بأن يجيء بين وقت وآخر أمام القضاة ليعلن

مهنته ووسائل معاشه، فمن لم يزاول عملاً عد ساقطاً لا قيمة له ويقضى عليه بالموت كان الرجل القديم سعيداً في وادي النيل فهو مع حمله عبئاً من أبهظ الاعباء التي تثقل الجنس لم يستشعر ثقله الا نادراً، فيحلو له خضوعه لليونة طبعه وسذاجة فطرته

ولم ترتفع الشكاوي من هذا الشعب الاحوالي آخر عهد الامبراطورية الجديدة اذ سيم ما فوق طاقته عقب حروب طويلة شاقة فأبى الجنود السير وأبى العمال بناء الآثار الفخمة لفخار الملوك، وقامت الثورات من كل ناحية ولكن الحكم على بناء ما، لا يجب أن يكون وهو في حالة السلامة، بل وهو يأذن بالسقوط.

لقد كانت مصر راقية سعيدة بنفسها قبل علاقاتها بالاجانب وذلك بفضل حكمة أنظمتها التي أخذ بهـا ومجدها أمهر الرجال واكبر المفكرين مثل سولون وأفلاطون وليكورغ وفيثاغورس، وهذا ديودور نفسه قد اعترف بها اذ قال: « ان المصريين أنسوا بنظمهم فلم يضيفوا اليها غيرها »

ان اكبر شاهد خلفه لنا التاريخ على عبقرية مصر وقوة مدنيتها وظول العهد بهذه المدنية الباهرة تعصب اليونان لها واعجابهم البالغ بصحة نظام الحكومة المصرية وحكمة الكهنة. فمدنية مصر فذة أصلية وقد تكون أطول مدنية قوية عرفها الوجود

(٢) الاخلاق والعادات

كانت أخلاق المصريين بوجه خاص اجتماعية لينة. فمبدأ الطاعة المتأصل فيهم كان قوام أعمالهم، ولكل واحد منهم مكانه يستقر به في وادي النيل. فالملك يخص الآلهة بالاحترام، والرجال الاحرار يحترمون الملك، ويحترم الارقاء سادتهم، ويحترم الصغار الشيوخ

قال هيرودوت:

« لم يكن بين اليونانيين سوى اللقدمونيين يتفقون مع المصريين في احترام الشبان للشيوخ. فاذا ما صادف شاب شيخاً أخلى له الطريق وقدمه على نفسـه. واذا جاء شيخ مكاناً به شاب وقف له هذا »

ثم قال :

« ولـكن هناك طريقـة تنافي ما كان متبعاً عند اليونانيين ، وهي أن المصريين اذا ما تقابلوا كانوا لا يحيون بالـكلام ولـكن ببسط أذرعهم الى ركبهم مزيداً في الاحترام »

كان الادب والظرف والتلطف والاحترام الانساني من أخص مظاهر علاقات المصريين بعضهم بعض . وتبدو هذه الخلال طبعاً عند هذا الشعب العطوف الفرح والسبب الا كبر في هذا لطافة المناخ وقوة تكوين المصريين .

وقال هيرودوت أيضاً :

« لم يكن بعد الليبيين رجال غاية في صحة الجسم وحسن المزاج مثل المصريين. وأظن ان هذا يمكن رده الى الفصول التي لا يعتريها كبير تغير ، لان تقلب الاهوية والفصول هو السبب في حدوث الامراض »

ان حسن المناخ وجودته مكنت المصريين من البقاء كثيراً في الهواء الطلق. فقد كانت غرف مساكنهم المسوّرة قليـلة محدودة ، ومعظم اقامتهم في أفنية المنازل وحدائقها أو على الاسطحة

أما ملابسهم فكانت بسيطة . فالرجال يستترون بنوع من المآزر يحوطهم من عند الكاليتين و يتدلى الى الركبتين، وكانوا يرتدون في بعض الاحيان بمعطف كبير وترتدي النسآء نوعاً من الاقمصة يغطيهن من العنق الى الكعبين ، وا كبر تأنق للسيدات ثوب من قماش رقيق شفاف يرتدينه فوق هـذا القميص . أما الراقصات فانهن لا يرتدين سوى هذا الثوب الشفاف الذي ينم من خلال طياته على شكل أجسامهن وحركات أعضائهن البديعـة . ولا يلبس العبيد والخـدم فى الجيش شيئاً من الملبس سوى الزنار الضيق .

وكان التزين بالحلى شائعاً بين الرجال مثله بين النساء . فمنه العصائب والخواتم والاساور في المعاصم والخلاخيل في السوق والعقود والاحراز الثمينة والاحزمة المحلاة بالاحجار أو باللالىء والمينا . كل هذا كان يتحلى به الجنسان . وللنساء الاقراط

وكان استعمال الخضاب كثير الشيوع . فتخضب بالحناء الاظافر ، وتكحل العيون بالكحل والاثمد

وكان المصريون يحلقون رؤوسهم ولحاهم وقاية من الحرارة او طلباً للنظافة وكان الكهنة يحلقون الجسم كله وكان من الواجب وقاية الجمجمة من حرارة الشمس ، فلذا استعملوا الشعر المستعار مكان العمامة التي تستعمل الآن



(ثلاث صور لاغطية الرؤوس)

وغلا المصريون والمصريات في الشعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلاً معقوصاً مضمخاً بالطيب مجموعاً بين أشرطة من اللآلىء ، ولكن هذه الاشياء المختلفة كانت

غالية الثمن فاستعيض عنها بما يشبهها من البهرج أو بقماش مطوي يتدلى باعتدال من جانبي الرأس كما نرى في أبي الهول. أما العمامة فكانوا يضعون على رؤوسهم طاقية صغيرة محكمة الوضع .

وكان الاولاد يحتفظون حتى سن الادراك بغديرة طبيعية تتدلى من ناحية من الرأس ويحتفظ وارث العرش بغديرته ما دام أبوه على قيد الحياة حتى بعد ادراك البلوغ

وكانت عندهم لحى صناعية يثبتونها على الذقن، وتدل بطولها أو قصرها على مركز من يحملها ، وكانت أشكالها مستقيمة مستديرة

ويحرص الكهنة على أن تكون لحى الآلهة وحدها منحنية عند طرفها

ويحتذي المصريون نعالاً من البردي يخلعونها احتراماً عند باب المعبد أو مقر الملك . ولا يسمح الامير ببقاء الحذاء لمن بحضرته الا للذين يرى اكرامهم واجلالهم بصفة خاصة . وهذا الامتياز يماثل ما كان لعظماء أسبانيا الذين يبقون أمام ملكهم ورؤوسهم غير مكشوفة

وأغرم المصريون باللهو والمسرة ، فحببت اليهم الجمعيات والمآدب والاجتماعات السارة والرقص والموسيقى والمحادثة والالعاب فولدت لهم أبهة الحفلات الدينية أنواع المشاهد .

وقد أرتنا صور القبور ما تكون عليه تفصيلات حفلة يقيمها مصري غني منذ ثلاثة آلاف سنة فكان المدعوون لا يكادون يجيئون ويحيون رب البيت وربته وهما جالسان بأبهة على مقعدين مرتفعين حتى تحيط بهم الخوادم الجميلات العاريات يتوجن شعرهم ويُحطن أعناقهم بأكاليل من الزهر أو يضمخنهم بالاعطار أو يصببن لهم النبيذ في أقداح من الذهب والفضة أو البرُنز أو يتقدمن لهم بالفاكهة .

ويتناول المدعوون المرطبات على هذا النحو جلوساً على مقاعد ثمينة . فأذا رأوا معارفهم واصدقاءهم اجتمعوا بهم جماعات يتبادلون أطيب الاحاديث وتشنف آذانهم الموسيقى بأنغام القيثارة والصنج والمزمار المفرد والمزدوج . فقد كانت الموسيقى غرام

المصريين . ومن المحتمل ان يكون هذا الفن قد بلغ الى درجة متقدمة من الاتقان في وادي النيل ، فقد كانت جزءاً من التربية الحسنة . ولكنها والرقص لم يكونا من شغل الطبقات العالية . فالموسيقيّ والراقصة من طوائف تدفع لها أجورها في الحفلات . وكان العظماء يعلمون رقيقهم أحياناً هذين الفنين للتلذذ في المنازل مع الاصدقاء .

وعندما يحضر الطعام تنقطع الملاهي والاحاديث ، فيجيء الخدم يحملون موائد منخفضة عليها جميع ألوان الطعام ، فيلتف حولها المدعوون وهم جلوس على الارض، وقد تكون هذه الموائد في الغالب مرتفعة وحولها الكراسي . وأهم أنواع الغذاء اللحوم والطيور المائية والاسماك والخضر والفواكه ، وغالباً يكون منها العنب والبلح والتين .

ويجري تناول الطعام بالأيدي من صحفة واحدة كما يفعل الشرقيون الآن . وتقدم لهم المناشف لمسح الافواه والأيدي عند غسلها قبل الطعام وبعده . ويكثر تناول النبيذ والجعة ، ويشرب الحساء بملاعق لطيفة منقوشة المقابض، وفي الآثار نماذج جميلة من نوعها .

وكان حضور النساء الموائد مظهراً لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث . فالمصري يكون بجانب امرأته أينما وجد . وليس من الادب الفصل بين زوجين كما نرى الآن في المآدب الأوربية . فالزوج والزوجة يجتازان الحياة واليد في اليد كما نرى على القبور .

ويحدث في هذه الولائم ان يفرط النساء في الاكل والرجال في الشراب فيحملون الى منازلهم في حال سكر تام . ولكن لا ينسى المصريون قط ، حتى في أشد احوال سرورهم ، فكرة الموت . فقد قال هيرودوت : «انهم يجيئون عقب تناول الطعام في الولائم التي يقيمها الاغنياء بنعش به صورة من الخشب متقنة الصنع والدهان تمثل ميتاً وطول هذه الصورة ذراع أو ذراعان فيراها جميع المدعوين ويقال لكل منهم : « ألق بنظرة على هذا الرجل فأنك ستشبهه بعد الموت ، فاشرب اذن الآن وتلذذ » .

وليس بفكرة الموت كما يراها المصريون شيء من الازعاج أو مما تشمئز منه النفس ، فقد كانوا يرون من دواعي السرور ان يبقوا عندهم أحياناً موميا اهليهم أشهراً طويلة قبل دفنها في قبرها وقد يقع أيضاً ان يجعلوا لاحدى هذه الموميا أشرف مكان في الوليمة دون ان يكون للمدعو الصامت ، ذي الحدقتين الثابتتين، الملون الوجه ، أي أثر يخفض من درجة سرور الحاضرين .

وبعد تناول الطعام ضروب من التلهي اكثر اختلافاً مما كان قبله في الموسيقى والغناء والرقص . فمنها التمثيل الصامت ونكات المضحكين والمصارعة والعاب الحواة . وتتلاعب النساء بالكرات فتقذفنها ، فاذا فاتتهن لقفاً ضحك الراؤون منهن .

وكان المصريون يسرون أيضاً بلعب الدامة والشطرنج ، وللصغار ألعابهم فقد وجدوا في القبور لعباً من كل نوع كخيال الظل ذي المفاصل وكالعرائس والحيوانات والاواني والادوات المصغرة .

ولم يكن عند المصريين مسرح للتمثيل على النحو المعروف ، فكانت تسليتهم ما ذكرنا ويضاف عليه الصيد البري وصيد الاسماك وكان لديهم كلاب صيد من نوع كلاب صيدنا الآن .

وتبتهج مصر وتظهر زخرفها بجميع الاحتفالات دينية أو رسمية اذا أقيمت في مثل تتويج الملوك أو اجلال الآلهة أو الجنازات الكبيرة . فالمصريون شغفون بكل صوت شجي وشكل جميل ولون زاهٍ .

وكان مرخصاً بالمعابد في الموسيقى والرقص ، ولكنهما هناك غاية في الوقار والقداسة . وبالهيا كل آلة لا يعزف بها في خارجها تزن حركات الرقص والغناء وهي كحدوة الجواد من البرنز مستطيلة مركبة على قبضة تمرّ من خلالها مثلثات متحركة ذات رنين ، وليس لأحد حق تحريكها ابان الحفلة الا الملكات والاميرات وزوجات الكهنة وبناتهم . وشأن هذه الآلة شأن الجرس الصغير في الصلاة بكنائس الكاثوليك .

أما حفلات الجنائز فكانت نهاية في الخطر وعظم الشأن . ففيها ترى "النادبات

يولولن وقد عفرن رؤوسهن بالتراب . والنادبين يقرعون صدورهم والارقاء يحملون موائد عليها القرابين والكهنة يحملون بأيديهم صور الآلهة وغيرهم يحملون تماثيل صغيرة للموتي . ثم تأتي الذبائح المخصصة للتضحية ، ثم نادبات أخريات فكهنة وأرقاء آخرون ثم الزورق المقدس ينزلق على ما يشبه الزحافة وفوقه النعش الفاخر ، وينتهي الموكب بالأهل والاصدقاء

ويصل هذا الموكب الحافل الكبير ، وسط الصراخ والعويل واكاليل الزهر وما يضوع من الاعطار وما يقدم من القرابين الثمينة ، الى البحيرة المقدسة فيعبرها ولا يفارق الميت الا عند عتبة ملجئه الأبدي .

وكل ما جرى من الدموع يومئذ انما هو علامة احترام وإكبار للميت اكثر منه للحزن ، لأن مصر لم تكن ترى الموت مؤلماً . وتصورها المحض هو الذي خفف ويلة ذلك السر الرهيب الذي ينتهي اليه كل مخلوق وتنتهي عنده وتصغر كل روعة في الوجود .

القانون المصري

اذا كنا لم نعرف عن اليهود الا (العهد القديم) وعن المصريين الا قوانينهم على النحو الذي بسطت به في تواليف المؤرخين الاغريق، فاننا نقول ان قوانين كتاب العهد القديم تشعر بأنها قريبة عهد بالخروج من البربرية أما الثانية فتدلنا على ان وراءها ماض طويل من المدنية .

القانون عند اليهود ، وبخاصة قانون العقوبات ، طبع بطابع عادات ازمنة البربرية أما القانون المصري فبريء من هذا الطابع . لم يكن في القانون المصري أخذ العين بالعين والسن بالسن كما هو الاساس في جميع القوانين الاولية بل كانت الجمعيــة قد حلت محل الفرد في عقوبات الجرائم التي تقع على الافراد . وكانت الوظائف المجتمعة في يد واحدة عند الامم الاولية مفردة وموزعة بالتخصص الشديد عند المصريين .

غير ان مصر تمثل مدنية ٥٠ قرناً ووراء هذه المدنية ماض نجهل مداه ، فما توصل الاغريق الى دراسة نظمها إلا وهي في اوج من الرفعة، نعني عند نقطة البلوغ لا نقطة الابتداء . ولكننا نستطيع مع هذا أن ندرك بدء تلك النظم اذا تدبرنا ما كانت عليه الأمم الاولى . واذا أعوزتنا هنا مستندات البحث في مصادر القانون المصري فسندرسه كما درسنا الديانة المصرية ، نعنى من النقطة التي بلغ اليها

كان القانون المصري محل اعجاب الكتاب كافة من اليونانيين الى عهد بوسويه . وكان أثره في القوانين اليونانيه الرومانية التي اشتقت منها قوانين الأمم الحاضرة ، غاية في العظمة . فأكثر العقول المستنيرة عند الاغريق تعلم في المدارس المصرية وجميع المؤلفين الاقدمين أبانوا أثر النظم المصرية في نظم اليونان

قال شمبوليون « تعلم فيثاغورث بمصر كل ما استطاع معرفته ونعلم بها ايضاً سولون

وطاليس المليطي كل ما علماه لليونانيين، ومعروفة لدينا أسماء الاساتذة الذين تلقى عنهم افلاطون بمصر علمه في مدرسة هليوبوليس »

وقال شمپوليون في موضع آخر « ان اليهود ايضاً مدينون للمصريين فمن أشهر التلاميذ الذين تلقوا المبادىء المصرية موسى »

وتعمق بعض الكتاب الحاضرين في دراسة القانون المصري فاعترفوا بنفوذه في قوانين الأمم الاخرى القديمة . قال (ريڤيو) فيما يختص بالقانون الروماني : « ان كل ما كان يسمى حقاً بقانون في وصايا الالواح الاثنى عشر انما أخذ من قانون مصر فحقوق الافراد وحقوق الامم التي يتكلم عنها المشرعون الرومان وحق المدنية لم تكن من مخترعات عقولهم بل من الحقوق المقيدة بقوانين وضعت من قبلهم . والمستندات الكثيرة والنصوص والوثائق القضائية التي وصلت الينا من مصر وكلدة تدلنا على ان المصريين والكلدانيين هم الذين ابتدعوا تلك القوانين من آلاف السنين عدا انهم أساتذة الاغريق وائمتهم وقدوتهم في كل امور المدنية . »

وربما وجد المرء لأول وهلة تناقضاً بين ما قررناه من قبل وما نقوله هنا بشأن عدم صلاحية نظم شعب من الشعوب لشعب آخر على وجه الاجمال . لان النظم عبارة عن ترجمان عواطف الامة وحاجتها فما يصلح لهذه لا يصلح لتلك ولكن هناك مع ذلك نقطاً جزئية تتلاقى عندها بعض العواطف والحاجيات في الامم المتشاكلة فتأخذ امة عن اختها من النظم ما يتفق وهذه الحاجيات ولا يختلف مع درجة رقيها . فكان الاغريق مثلاً وهم جنس متحضر كيس يستطيع الأخذ عن المصريين أما اليهود فماذا كانوا يأخذون اكثر من بعض صور المدنية المادية . لم يكن يستطيع موسى وهو تلميذ المصريين أن يفرض على جماعات العبدان الذين جمعهم والف منهم الشعب اليهودي إلا ما تستطيع عقولهم الجامدة قبوله . فما كانت تفيد اولئك العبيد الذين عادوا الى عيشة الرحلة والتنقل والوجود البربري نظم مصر المهذبة ولو انه حتمها عليهم لماتت قبله ولما كان له وجود في التاريخ

ولسنا ندخل هنا في تفصيلات القوانين المدنية المصرية وانما ندل على أهمها فنثبت هنا ما ذكره ديودور عن خلاصة القانون الجزائي المصري . قال :

« كان عقاب اليمين الكاذبة الموت لأنها تجمع بين جريمتين كبيرتين ضد الآلهة وضد الناس . ومن يرى على الطريق رجلاً ممسكاً بقاتل أو واقعاً تحت جبروت من هو أقوى منه ولا يسعفه مع قدرته على الاسعاف يقضى عليه بالموت واذا لم يستطع الاسعاف فهو مكلف بالارشاد الى قطاع الطرق وتسليمهم الى المحكمة واذا لم يفعل هذا عوقب بعدد معين من العصي و بقطع الطعام عنه ثلاثة أيام . ومن يتهم غيره تهمة باطلة (البلاغ الكاذب) يعاقب بمثل ما يعاقب به النمام . وكل مصري مأمور بأن يدع عند القضاة كتابة تدل على وسائل معاشه فمن يزور في ورقته أو يكسب معيشته بطرق غير شرعية يكون جزاءه الموت . وكل من يقتل عمداً رجلاً حراً أو عبداً يقتل مثله لأن القوانين لا تفصل على قاعدة الفروق بين الناس ثروة وجاهاً وانما على قاعدة نية المجرم [1] . و بمقتضى هذه الرعاية التي تبذل للعبيد كانوا لا يعتدون على الاحرار والسادة . ولا يحكم بالقتل على الاباء الذين يقتلون أولادهم ولكن يلزمونهم بالبقاء بجانب الجثة ثلاثة أيام وثلاث ليال و بعناقها طول هذه المدة تحت رقابة أحد الحراس العموميين لانه ليس من العدل أن ينزعوا الحياة عمن بثوها فيهم ولأن العقوبة بهذا الشكل تنزل في قلوبهم الحزن والندامة فلا يعودون الى مثل هذا الجرم . أما الاولاد الذين يقتلون اباءهم فلهم عقاب رائع اذ يشد بهم الى الخيزران و يحرقون أحياء على الاشواك لأن قتل الاباء اكبر جريمة يقترفها الانسان

ولا ينفذ جزاء القتل في الحوامل الاّ بعد أن يضعن لانه من الظلم أن يقع العقاب أيضاً على جنين المجرمة وهو ملك لامه وأبيه . والقضاة الذين يحكمون بالموت على بريء يكونون كمن برأوا القاتل وأخلوا سبيله .

وفي القوانين الخاصة بالجند قانون يقضي بالفضيحة لا بالموت على من يفر من الصفوف أو لا ينفذ أوامر رؤساءه فاذا محا بعد ذلك فضيحته بعمل مجيد أعيد الى مكانته الاولى . وكذلك ترى ان التشريع جعل التجريد من الشرف عقوبة أشد

---

(١) يقول المؤلف : الاحظ هنا ان القانون المصري يتفق في هذه النقطة والقانون العصري . ويخالف القانون الهندي كل المخالفة . في قانون الهند المسمى (مانافا دهر ساسترا) ويرجع تاريخه الى الي سنة تكون العقوبة تابعة لاهمية الطائفة التي منها المجني عليه . فقتل احد السوسترا يعتبر جريمة طفيفة اما قتل البرهمي فيعاقب عليه بأشد العقوبات في هذه الحياة وفي الحياة الاخرى . اهـ

هولاً من الموت ليتعود رجال الحرب على اعتبار الذلة أكبر المصائب وأشد من القتل . ثم ان الابقاء على المقضي فيهم بالفضيحة من شأنه أن يفسح لهم في فرصة العمل لمحو الاهانة واسترداد المكانة فتستفيد الحكومة من ذلك فائدة كانت لاتتأتى اذا حكم عليهم بالقتل . ويعاقب الجاسوس الذي يسلم الاعداء سر الخطط بقطع لسانه . ويحكم بقطع اليد على مزيفي النقود ومطففي الكيل والوزن ومزوري الاختام ومحرري العقود المزيفة والمزورين في الاوراق الرسمية وكذلك تكون العقوبة قاصرة على العضو الذي فعل الجريمة فيزال بالقطع ويبقى مكانه الخالي امام أعين الناس عظة ومردعة حتى لا يكون تطاول على القوانين

وكانت القوانين الخاصة بالنساء غاية في القسوة . فمن ينتهك عرض امرأة حرة عنوة يعاقب بالجب لاعتبار الجريمة ذات ثلاث مضار كبيرة . الاهانة . والعدوان على الاخلاق . وايقاع الاختلاط في النسل . أما الزنى المقترف بلا عنف فيحكم على الرجل فيه بألف ضربة بالعصا ويقطع انف المرأة[1] ومراد الشارع بهذا حرمانها جمالها الذي استخدمته في التغرير بالرجال . »

قال الدكتور لوبون انتهى كلام ديودور واذا أضفنا عليه الاعتراف السلبي للروح امام محكمة اوزيريس كما مر بالقارىء في فصل الديانة حصلت لنا فكرة كافية في الدستور الأدبي عند المصريين ومبدأ الواجب في نظرهم . وأدركنا ان هذا الدستور غاية في الانسانية لأنه يأمر بالاحسان الى العبيد ويعاقب من يقتل منهم بمثل ما يعاقب به القاتل من الاحرار . ثم ان هذا الدستور الادبي الخلقي غاية في الرقة لأنه يعتبر الشرف أثمن من الحياة ويرى ان الكذب جريمة . وهو بعد ذلك نهاية في المعدلة لانه لا يعترف بطبقة المجرم فيناله بالعقاب على جريمته مهما كان محله من علو الجاه وكثرة الحطام

وكانت الجرائم التي لا تؤدي الى جزاء القتل أو تقطيع الاعضاء تعاقب بالسجن

---

(١) قال المؤلف : صدمت مثل هذه العقوبة الخاصة بالزنى على حدود ست في امبراطورية بابل العجيبة ولكني فهمت من السكان انها ليست ناجعة ولهذا فهي آخذة في الاندثار ولقد قال لي أحد كبار هناك انه لا يمكن قطع انوف جميع النساء . . .

وبالاشغال الشاقة . أما الضرب بالعصا فللذنوب الهينة ولا يستثنى منها أحد حتى النساء . والعصا اداة محترمة عند المصريين لها عندهم مقام مرفوع فقد صور الحفارون على الحوائط كيف كان الاطفال يقرعون بها في المدارس وكيف كان اللصوص يضربون بها في الميادين العامة . وكان العبيد والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يعملون والعصا في أقفيتهم

ولدينا مستندات كثيرة تدلنا على أن جريمتي السرقة وقطع الطريق كانت لهما عقوبتهما في وادي النيل وهي اما الضرب بالعصا واما بالعمل في المناجم أو بالموت حسبما تكون أهمية الجريمة . وهناك عادة غاية في الغرابة رواها لنا ديودور ولكن لا ينبغي أن نأخذ بها الا بتحفظ كبير . قال :

« كان عند المصريين قانون غريباً في بابه خاصاً باللصوص فهو يأمر من يريدون احتراف هذه الحرفة بتسجيل اسماءهم عند رئيس اللصوص ثم يأتونه بجميع ما يسرقونه . ثم يعمد الذين وقعت عليهم السرقة الى هذا الرئيس فيدونون الاشياء التي سرقت منهم ثم يدفعون ربع قيمتها لترد اليهم[1] . والقصد من هذا ان الشارع لما رأى استحالة منع الجميع السرقة . أوجد طريقة لرد المسروفات باتاوة قليلة » .

وكان الملك في مصر الرئيس الأعلى للعدل كما كان الرئيس الأعلى للجيش والهيئة الدينيــة . وكان له حق الحكم والعفو وتعديل العقوبة ولـكن ندر أن يحكم بنفسه رأساً . اما كيفية اجراء العدل ففصلها لنا ديودور ايضاً فيما يلي . قال :

« ينتخب المصريون قضاتهم من عظماء الاهالي في المدن الـكبيرة كهليو بوليس وطيبة وممفيس فنعين كل مدينــة من هذه المدن عشرة فيجتمع الثلاثون لانتخاب رئيس لهم فاذا انتخب عينت مدينته عضواً آخر مكانه وجعل هو للرئاسة فقط . ويدفع الملك مرتبات هؤلاء القضاة . وكان مرتب الرئيس غاية في العظم . ومن مميزاته أن يحمل حول عنقه طوقاً من الذهب مثل السلسلة نيطت بها صورة صغيرة من الاحجار الكريمة تمثل الحقيقة. وتبتدىء المرافعات عندما يتقلد الرئيس السلسلة المذكورة

---

(١) المعرب : ما اشبه هذا بما يقال له (الحلاوة) الآن

« وكانت القوانين كلها مدونة في ثمانية مجلدات توضع امام القضاة . ويكتب الشاكي تفصيلات شكواه ويبين الحادثة التي وقعت له ويذكر التعويض الذي يطلبه عما لحق به من الضرر . ثم يطلع المدعى عليه على دعاوي خصمه ويجيب كتابة على كل تهمة فينكر أو يعترف ثم لا يعد ما فعله جريمة . أو يجتهد في تخفيفها اذا كانت من الجرائم الثابتة . ثم تترك للمدعي فرصة اخرى للرد على المدعى عليه وتترك لهذا أيضاً فرصة للرد على المدعي وكل ذلك بالكتابة . ثم يتفاوض القضاة الثلاثون ويصدرون حكماً يعلنه الرئيس واضعاً صورة الحقيقة على أحد الطرفين المتخاصمين .

« كانت القضايا تباشر بالكيفية السابقة . وكان من رأي المصريين ان المحامين يجعلون القضايا غامضة بخطبهم وان الخطابة وسحر الحركة ودموع المتهمين من شأنها أن تذهب بالقاضي الى الاغضاء عن القانون والحق . ولا غرابة فقد نرى اكبر القضاة مهارة تغرر به قوة القول الخادع . ولذا رأى المصريون الخير كله في أن تعرض القضايا كتابة مجردة من زخرف القول وبهذه الطريقة لا تمتاز شدة العارضة وقوة البادرة على الفهم البطيء ولا يتطاول دهاة الرجال على الجبلة ولا يسبق الكذابون الخلابون من يحبون الحق في هدوء وتواضع . فأنت ترى من هذا المساواة بين الجميع ولكل من المدعين والمدعى عليهم الوقت الكافي للاتهام والدفاع وللقضاة الوقت الكافي أيضاً لتكوين رأيهم . »

انتهى كلام ديودور ولقد أطلت في الأخذ عنه لتظهر كيفية اعجابه واعجاب غيره ممن درسوا نظام القضاء المصري بحرص المصريين على اجراء العدل والحق حرصاً لم يشأ كلهم فيه غيرهم من الامم .

وهذه الروح بعينها في القضاء هي التي أوحت بالقوانين المدنية فكان احترام حق الملك مطلقاً فلا القوة ولا الزمن يهدم حقوق المالك وعلى هذا فلا وجود لسقوط الحق بمضي الزمن . وكانت العقود محوطة بالضمانات البالغة الدقيقة وكثيراً ما يبلغ عدد الشهود الموقعين عليها الى ستة عشر شاهد .

ويلاحظ من أوراق البردي التي كثرت الآن بأيدينا أن القانون المدني المصري زيد تركيباً وتعقيداً شيئاً فشيئاً . كانت العقود بين الاهالي في بدء الامر

شفوية امام الشهود وضماتها القسم . ثم جاء (بوكوريس) من الاسرة الرابعة والعشرين في القرن الثامن قبل المسيح فخلط جميع القوانين المدنية ونظامها وحتم كتابة العقود ومن ثم كثر التعقيد وضوعف شيئًا فشيئًا ونشأت أهمية الكتبة والمسجلين وعظمت ثم انتهى الامر بوجوب تسجيل العقود في السجل الملكي لاثبات صحتها .

قال مسيو (ريفيو) : « والخلاصة ان العقود الشفوية الاولية تغيرت بالعقود الكتابية منذ صدور قانون بوكوريس ثم تحتم في عهد (أفرجيت) الثاني مثلاً أن تمر امام المسجل وأن يكون عليها عدد معين من التوقيعات تبعًا لطبيعتها . ثم أن تكون مكتوبة بأ كملها على سجلات التسجيل ولا تقبل على هذه السجلات الا اذا كانت خالصة الرسم مستوفاة الحقوق ولا يكون هذا الا اذا دونت من قبل في ثلاثة سجلات اخرى . وهناك سجلات دقيقة للضرائب والمساحة وحقوق المعابد تستشار اذا اقتضى الامر بيع عقارات . »

هذا التسجيل المتعدد الاجراءآت قد خلف لنا آلافًا من المستندات موجودة على البردى يحاون رموزها شيئًا فشيئًا غير اننا نعرف منها عدداً كافيًا لنستخلص أهم القوانين المدنية

ورد في هذه القوانين انه اذا أنكر المدين بقسم منه دينًا غير مقيد بكتابة فالدين معدوم ولا يستطيع الدائن ضده شيئًا . وهذا النص هو الذي تذرع به بوكوريس ليرغم المصريين على كتابة عقودهم . على انه يدلنا من جهة أخرى على ما كان عليه مقدار القسم في وادي النيل .

وجاء ان ملك الاسرة اجماعي لجميع افرادها يتضامنون في التكاليف ، والعقود التى تعقد بينهم تعقد بصفة وتوقيع خاصين .

ولا يعطى ايصال بدين مدفوع وانما ترد الوثيقة الدالة على الدين الى من يدفع

وفائدة القرض عظيمة في مصر فكانت ٣٠ في المئة ولكن بترخيص الشرع . وتنتهي فوائد الدين ولا تسرى اذا بلغ مجموعها مقدار الدين الاصلي .

والتحكم في شخص المدين لم يوجد بمصر فلا يحجز الاَّ على أملاكه فقط .

وكانت هناك أنواع عديدة من الرهون . فالمدين المماطل يرهن أشياء ثمينة . وتقبل في الرهون موميا الاب واذا لم تخلص قبل أن يموت من يرهنها حرم هذا الراهن من ميزات الدفن وحفلاته .

وبائنة المرأة أو صداقها الذي تأخذه من زوجها وقت زواجه يعتبر كقرض يخولها حق الرهن مدى حياتها على أملاك الزوج

ووجدت بين العقود المصريةعقود ايجارات تعقد لمدة اثنى عشر شهراً وتجدد كل سنة .

ولم يستعمل المصريون نقود الذهب والفضة الاّ مؤخراً . وكانت تقدر بوزنها . وبقي القمح والزيت مدة طويلة وسيلة للمبادلة وكان معظم الضرائب يدفع عيناً .

من جميع ما مرّ يفهم القارىء ان كافة صور التعاقد والتبادل وما اليها كانت مضبوطة بمصر يسجلها الكتبة ويوقعها الشهود . وكانت الجرائم والجنايات مكبوحة يحول من دونها وازع القانون أو يعاقب عليها قضاة الملك باسم الحكومة . وتدخّل الجماعة على هذه الصورة في منازعات الافراد واتفاقاتها ، يدل كما قدمنا على مقدار الرقيّ العظيم الذي بلغته المدنية المصرية لان اختصاص الحكومة بالعدل واجراءه واناطة الوظائف القضائية بهيئة منظمة مؤلفة ، لانرى الا عند الشعوب التي وصلت الى درجة راقية من التطور أما الشعوب الاولية فلا يوجد عندها إلاّ حق الانتقام المعترف به للمجني عليه وأخذ العين بالعين والسن بالسن وليس هذا الا عدل البرابرة

ولقد كانت كل هذه الميزات بمصر لا في عهد هيرودوت فحسب بل في بدء تاريخها قبل تاريخنا الحاضر بنحو خمسين من القرون

وكلما أوغلنا وراء مختلف العناصر التي تألفت منها المدنية المصرية وتعمقنا في نظر تأليف الفراعنة وأنظمتهم يأخذنا الدهش من طول الطريق التي قطعها اولئك الامجاد في سبيل المدنية فنحني امام مصر القديمة ، أرض الماضي الخفي الرهيب ومهد أقدم الامم المنظمة في الوجود . بل امام المربية الحقيقية للجنس البشري .

الفصل السادس

العلوم والصناعة

(١) كيف كان علم مصر وكيف انتشر في العالم

لم يؤلف كتاب عن مصر إلاّ وفيه اطراء عظيم لمعارف المصريين . ولكن إذا اريد تحديد مدى هذه المعارف بالدقة أعوزت المصادر والمستندات فالاكتفاء اذن ببعض صحف أمر لا بد منه لأن الكتابة المستفيضة في علوم المصريين تقرب من المحال وتتطلب بحوثاً غاية في المشقة ، وثقابة في النظر لم يؤتها إلا النوادر من المؤرخين .

ولا تعوزنا المصادر والمستندات في تدوين العلم المصري فحسب . فانها تعوزنا أيضاً في البحث عن الفروع الاخرى للحضارة المصرية . خذ مثلاً موضوعي الدين وفن العمارة فقد نراهما ظاهرين مع ان بهما الكثير من النقص . ان في فن العمارة وحده أزمنة تعد بآلاف السنين لا نعرف منها شيئاً على وجه التقريب فبعض أجزاء البيوت والقصور التي بنيت في عصور مختلفة لم يبق منها أي أثر ولهذا كان من السهل أن نودع ما تركه لنا المصريون في مدى خمسين قرناً في كتاب واحد أما ما تركه الرومان والاغريق وقد عمروا أقل من ذاك فلا تكاد تحيط بصفاته مكاتب برمتها .

وليس معنى هذا ان المصريين أنتجوا قليلاً . وانما معناه اننا لو استطعنا تقصي تفصيلات معارفهم لما وسعتنا موسوعات كاملة لبسطها

لم يبق لنا من علوم المصريين إلاّ ما دوّن في اثنتين أو ثلاث من ورق البردي وهو بسط لمبادىء أولية يرجح انها كانت للتعليم في مدارس الاطفال ولكننا إذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائجه رأينا انه كان نهاية في التقدم .

اننا لا نكاد نعرف شيئاً مثلاً من الهندسة عند المصريين ولكننا نستطيع الحكم إذا التفتنا إلى تطبيقاتها بأنها كانت راقية فقد كان المصريون يعرفون تقدير سطح الأرض تقديراً ألمعوا اليه كثيراً في ورق البردي . وكانوا يعرفون نظرية تطبيق التسوية والفاذن المائي لأنهم احتفروا الأقنية والبحيرات الصناعية . وعرفوا أيضاً نظرية قطع الاحجار كما تدل على ذلك الآثار العجيبة وخصوصاً في ممرات الاهرام الكبيرة . وعرفوا الملائمة بينها وتركيبها .

ونجهل مثلاً طرق الرقابة والرصد عند المصريين في علم الهيئة ولكننا نعرف انهم مهروا كل المهارة في توجيه آثارهم وكانوا على علم بمدار السنة وهذا العلم يقتضي عدة معلومات لم تصل اليها الشعوب الراقية إلاّ أخيراً، ونفترض أيضاً انهم كانوا يعرفون المزولة لأننا على يقين من أن البابليين عرفوها وكانت للمصريين بهم صلة وقت الاغارات أو أيام الاتجار فأخذه عنهم البابليون . ولا يخفى أن هذه الآلة الساذجة الأولية المؤلفة من ساق عمودي على سطح افقي انما تعين على تعيين النقط الاربع الأصلية ووقت الزوال الحقيقي ووقت الانقلابات وميل السمت وعرض المكان . . . الخ

ولا نعرف تفصيلات الاجراءآت الكيماوية الصناعية ولكننا ندرك انها كانت عديدة معقدة لأنهم استخرجوا بها المعادن المهمة وصنعوا الزجاج والميناء والبردي والاعطار حتى الجواهر الصناعية والالوان والاصباغ والاخضبة التي لم يذهب ببهاءها آلاف السنين . ولسنا نعرف طرق البناء في مصر ولكن بقايا الآثار القائمة تقول لنا ان تلك الطرق كانت محكمة قد استنبطت بغاية المهارة .

كل ما نراه يدلنا على ان المعارف المصرية في العلم والصناعة كانت غاية في التقدم . ثم ان هناك ملاحظة اخرى وهي اننا إذا ضربنا صفحاً عما ذكره لنا هيرودت . فلا جدال في أن الشعوب التي اختلطت بالمصريين ولم تكن على شيء من العلم ثم تعلمت انما اخذت العلم عنهم . مثال هذا اليونان . فقد كان الاغريق قبل اتصالهم بالمصريين لا يعرفون شيئاً فتعلموا من المصريين كل شيء بشهادة المؤلفين الاغريق انفسهم .

قال اولئك المؤلفون ان العلوم كانت مجهولة كل الجهل لدى اليونانيين حتى ملك ابسامتيك في منتصف القرن السابع قبل المسيح عرش مصر وفتح أبواب بلاده للاجانب بعد طول قفلها فتقاطر إلى وادي النيل الملاحون والتجار والسياح من اليونان فبهرتهم المدنية المصرية وكانوا على كثير من البربرية فاعتزم اولوا الفهم منهم تعلم ما ينقصهم في مدارس الكهنة بمصر وكذلك جاء طاليس وسولون وافلاطون وفيثاغورث فحصلوا ما خلد أسماءهم في بطون التواريخ ومعروف أن فيثاغورث وحده قضى بمدارس ممفيس وطيبة عشرين سنة .

ولا نعلم تفصيلات ما تلقاه الاغريق عن المصريين ولكننا ندرك انها معظم المعارف التي تضمنتها كتبهم بعد إذ لم يكن لهم من قبل كتب ولا علوم ذات شأن

وما تقدم يدلنا أيضاً على أن أصول العلم نهاية في القدم فليس الاغريق هم الأصل ما داموا قد تلقوا عن المصريين وتقدمهم هؤلاء بآلاف من السنين وعلى هذا يصح لنا القول بأن العلم كالمدنية صرح واحد تعمل في بناءه الامم على التوالي واحدة وراء واحدة فاذا تقرر هذا صح أيضاً أن نبحث عن مبلغ علوم المصريين في تواليف الاغريق الذين عاصروهم مثل فيثاغورث وافلاطون

ولا يجوز أن يكتفي المؤرخ بما تقدم في بحثه عن العلم المصري بل ينبغي له أن يلم أيضاً بما فعلته مدرسة الاسكندرية الماماً لا يخلو من الحيطة والتحرز .

كلنا يعلم أن مدرسة الاسكندرية أنشأها بطليموس سوتر قبل الميلاد بثلاثة قرون وكانت مصر قد آلت اليه بعد وفاة اسكندر الاكبر . فجمع بطليموس مشاهير العلماء في مصر واليونان فعلموا في المدرسة معاً فتعذر التفريق بين مبلغي التعليمين ولكن لماذا لا يقال أن الحصة الكبيرة لمصر وعلماءها ما دام النفوذ المصري كان هو المتسلط المتفوق حتى مدة الإشراف الاغريقي كما يستدل من الآثار التي اقيمت في عهد ذلك الإشراف .

ان العدل والانصاف يقضيان علينا اذن بأن نقول عن الاغريق انهم كانوا بازاء المصريين كما كان العرب بازاء اليونان والرومان . فالاغريق والعرب ساروا بعلوم لم يبتدعوها ولهذا اتيح لهم تقديمها والرقي بها بسرعة وعلى هذا تكون اعمال

مدرسة الاسكندرية ثمرة العلم المصري الاغريقي . أما تقدير هذه الاعمال المبنية على بحوث خمسين قرناً في الحقيقة فمفهومة من مؤلفات بطليموس التي جمع فيها كل ما عرف إلى عهده من المعلومات . وتاريخ المؤلفات المذكورة بعد المسيح بقرن وبعض السنين

ولقد جمع بطليموس من المعلومات وخصوصاً في الهيئة والجغرافيا الشيء الكثير. ومن هذه المعلومات الثمينة صنف العرب كتاب (المجسطي) وفيه عدا وصف السماء وآلات الرصد حساب مساحة المثلثات المستقيمة الخطوط والكروية فكانت مادة الدراسة بالجامعات في العصور الوسطى . ولم تترك مؤلفات بطليموس الجغرافية في مدارس اوربا إلا في القرن الخامس عشر. أما مؤلفاته في الهيئة فلولاها ما اتيح لكوبرنيك وكبلر ونيوتن تلك المستكشفات الخالدة

ان كبار مبتدعي علم الهيئة الحديث يمتون جميعاً الى بطليموس بالصلة وليس بطليموس هذا إلاَّ ربيب المصريين وتلميذهم رأساً و إذا تدبرنا هذا أدركنا التطور البطيء في معلوماتنا من عهد بناة الاهرام إلى مؤسسي العلم الحديث و بدت لنا فكرة فلسفية أسمى من الفكرة التي تسود كتب اليوم .

إلى هنا فرغنا من بسط الاوليات العامة فلنشرع اذن في تلخيص ما علمناه من الآثار والتواليف بشأن علوم مصر ولا نحاول هنا رد كل شيء الى عصره فان هذا من المستحيلات الآن

(٢) العلم المصري حسب المأخوذ من الآثار والكتب

علم الهيئة — تمكن المصريون بالارصاد الفلكية من تنظيم مدار السنة والشهور والفصول ولكن مبدأ هذا التنظيم مجهول فهو ضائع في ثنيات عصورهم التي سبقت التاريخ وذكرت عنها القصص والخرافات ان الآلهة كانوا يحكمون الناس ويعلمونهم . ولهذا يرد المصريون عهد التنظيم المذكور إلى أحد إلاهين توت أو هرمس واليهما أيضاً يردون أصل جميع معلوماتهم . قال افلاطون بعد زيارته مصر للحكيم سقراط في بعض حواره .

« سمعت بضواحي نوقراطس . احدى مدن مصر . انه كان بها أحد قدماء الآلهة يقال له توت وانه هو الذي ابتدع الاعداد والحساب والهندسة والهيئة والشطرنج والنرد والكتابة »

وبديهي أن مستكشفات توت هذا لم تك من رجل فرد فهذا محال لان مقدور المرء مقصور على جمع معلومات من سبقوه فيخلط الناس في هذا ويعزون اليه ابتداعها كما عزت القرون الوسطى لارسطو المعلومات التي جمعها في تواليفه .

كان عند المصريين ثلاثة فصول منظمة بحركات النيل . فصل البدء وسمي بهذه التسمية لأنه أول فصول السنة . وعنوا بالبدء فصل الفيضان . وهو عندنا من آخر ابريل . وفصل البذار . وفصل الحصاد . وكل فصل اربعة شهور

ونلاحظ هنا أن بدء فصل الفيضان يطابق في مصر ظهور أبدع النجوم وهو الابرق[1] وكان اسمه عند المصريين (سبت) وسماه الاغريق (سوتيس) . فاليوم الذي يبدو فيه الابرق في السماء من نقطة مطلع الشمس يكون رأس السنة .

وكانت السنة تقسم في البدء إلى أثنى عشر شهراً . في كل شهر ثلاثون يوماً مقسمة إلى ثلاث عشرات . ولوحظ هذا وقت أن ابتدأ تاريخ مصر فكانت السنة ٣٦٠ يوماً ثم أصلح الحساب بعد أن رأوا انهُ يتقدم السنة الفلكية بخمسة أيام وربع يوم . وان الفصول الرسمية لا تطابق فصول الطبيعة فأضافوا الايام الخمسة على الشهر الاخير من السنة ويسمى هذا في وقتنا بأيام النسيء وهي تعادل أيام ٢٧ و ٢٨و ٢٩ و٣٠ و ٣١ من شهر اغسطس عندنا ولكن لا يعرف التاريخ عهد هذا الاصلاح لأن المصريين أنفسهم يردونه إلى ما قبل عهد الملك مينا اول ملوك الاسرة الاولى .

ثم لاحظوا أيضاً بعد ذلك ان السنة باعتبارها ٣٦٥ يوماً لا تطابق السنة الحقيقية لأن ظهور النجم الأبرق كان يتأخر ربع يوم في السنة نعني يوماً كل اربع سنين . أو سنة كل ٣٦٥ يوماً مضروبة في ٤ نعني (١٤٦٠) سنة فلكية . فبعد ١٤٦١ سنة ظهر الأبرق مرة واحدة من نقطة مطلع الشمس في اول يوم من اول

---

(١) احد كواكب الشعرى اليمانيه

السنة فعقدت لذلك أعياد خاصة رسمية وسموا هذا الدور بالدور السوتي أو الابرقي الذي جاء بالنجم وأطلعه في أول يوم من شهور السنة . وبقيت السنة ٣٦٥ يوماً ولكن المصريين فطنوا من ثم لموقع الأبرق ومقابلة تواريخهم بدور ظهور النجم المذكور في أول يوم من اول السنة .

ولم يك الابرق هو النجم الوحيد الذي رصدوه واختصوا به ايزيس ونظموا عليه أوقاتهم بل رصد الكهنة القبة السماوية كلها ودونوا أوجه النجوم واشراقها وغروبها وقسموها الى سيارات (لاتني تسير) وثوابت (لا تتزحزح) وعرفوا معظم الكواكب وأسموها بأسماء أشهر آلهتهم . واذا كنا نجهل الآلات والوسائل التي رصدوا بها فلا بد انهم كانوا يستعملون في اقدم أزمنتهم المزولة أو ما يشبهها فبدونها كان يستحيل عليهم ضبط اتجاه الاهرام الذي عين بآلات الوقت الحاضر فلم يتضح فرق إلاَّ في بضع دقائق لا تعد شيئاً مذكوراً .

قال مسيو بيو « ضع على سنادة افقية من الحجر تزن افقيتها بالرق وخيط الرصاصة . مسطرة مستقيمة بزوايا كالتي توجد في القبور المصرية ثم وجهها في صباح يوم ما إلى النقطة التي تطلع منها الشمس في الافق الشرقي . وارسم خطاً . ثم افعل مثل ذلك وقت الغروب وارسم خطاً فما يوجد بين هذين الخطين هو خط الطول الذي يدلك على الشمال والجنوب وهو ايضاً اتجاه الاهرام » .

واستخدم الكهنة المزولة في تعيين محيط الشمس إذ قاسوا الفرق بين طول ظل القضيب الراسي وقت ظهور قرص الشمس في الافق . وطوله وقد علا وظهر كله واستنتجوا من ذلك أن المحيط يعادل الجزء الخامس بعد السبعمئة من الدائرة التي يقطعها الكوكب في اربع وعشرين ساعة .

ولم تنجح طرق الرصد مع هذا في أن تعود على المصريين بفكرة صحيحة عن حقيقة النظام الدنيوي فكانت معقولاتهم في هذا الشأن أولية فصورهم البارزة ونقوشهم تصور لنا الأرض بشكل إله نائم (سب) وتصور لنا إلاهاً آخر هو الاله سشو يرفع فوقه القبة السماوية التي تمثلها الإلاهة نوت بجسمها المنثور بالنجوم .

وكانت هذه القبة السماوية الممثلة بالمعبودة نوت محيطاً واسعاً في عرف

المصريين يرتكز على السقف البلوري للهواء والكواكب تعوم فيه أما الشمس فتسبح في الفضاء جالسة في زورق تزجيه نوتية السماء .

والمصريون وان كانوا قد وصلوا ببحوثهم الى مقررات مفيدة هامة في الكواكب إلاّ أن أهميتها الكبرى في نظرهم كانت انارة سبيل المستقبل للموتى فالتنجيم إذن هو الذي كانت له المرتبة الاولى عند المصريين لا الفلك وعلم الهيئة

قال ديودور عن معارف المصريين في الرياضة والهيئة والتنجيم :

يعلم الكهنة أولادهم نوعين من الآداب المقدسة والعامة ويهتمون كل الاهتمام بالهندسة والحساب لأن النيل يغير منظر البلاد سنوياً فتقوم بين الجيران المنازعات على حدود الأراضي والأملاك ولا يمكن أن تنتهي القضايا إلاّ إذا فصلت فيها الهندسة . أما الحساب فضروري جداً في إدارة الاملاك الخصوصية وفي حساب الهندسة أيضاً . وهو غاية في النفع عند من يشتغلون بالتنجيم . وهم في مصر من أبرع الناس غير مدافع فقد كانت عندهم ٥ سجلات يرد عهدها إلى آلاف السنين مشحونة بالملاحظات الدقيقة عن الكواكب وحركاتها وعن علاقاتها بولادة الحيوانات وعن تأثيرها الحسن أو السيء في الامور . وكان المنجمون يخبرون الناس بالمستقبل وكثيراً ما يصيبون . وكانوا يتنبأون بالوفرة والمجاعات والاوبئة وامراض القطعان والزلزال والفيضان وظهور المذنبات وبكثير من الظواهر التي لايعرفها قبل وقوعها العوام ولا يستخرجون هذا إلاّ من حساب الكواكب »

وقال هيرودوت في الموضوع ذاته :

« ان من جملة ما ابتدعه المصريون نسبة كل شهر وكل يوم من الشهر لإله خاص ثم يلاحظون يوم ولادة الشخص ويقولون له الحظ الذي ينتظره وما سيصير اليه وبأي ميتة يموت . ولقد استعمل الشعراء اليونان هذا العلم ولكن المصريين برزوا فيه وأتوا بالمعجزات ، فكلما وقعت حادثة غريبة دونوها كتابة وراقبوا ماتجره وراءها فاذا وقع ما يشبهها أقتنعوا بأن مصيرها كسابقتها »

انتهى كلام هيرودوت ونقول نحن اننا جاءنا من المصريين أسماء أيام الاسبوع فهم أول من سماها بأسماء الكواكب والقمر والشمس وقسموا كل يوم الى أربعة

أقسام وأطلقوا على كل ربع اسم كوكب ويسمى اليوم كله باسم الربع الاول ووسموه بالسعد أو النحس وراقبوا هذا في جميع أعمالهم المعاشية

الرياضيات — أبنا في فقرة سابقة ان الرياضيات وبخاصة تطبيقاتها لا بد أن تكون راقية في وادي النيل فلم تقتصر معارف المصريين على العلم بالآلات الاولية كالمسطرة والبرجل وميزان البناء بل تعدتها الى الآلات الكثيرة التعقيد كالدائرة المقسمة الى ٣٦٠ درجة

ووصف لنا هيرودت دائرة من هذه الدوائر قال انها كانت على قبر اوسيمانديياس والحقيقة انها على قبر رمسيس الذي لا تزال معالمه قائمة . قال هيرودوت:

« كان في رأس قبر الملك دائرة من الذهب محيطها ٣٦٥ ذراعاً وكثافتها ذراع وكانت مقسمة الى أقسام بعدد أذرعها فكل قسم ليوم من السنة وكتب بجواره الشروق والغروب الطبيعي للكواكب وتنبؤات المنجمين المصريين بشأن ذلك وقيل ان هذه الدائرة نهبها قمبيز في الاوقات التي فتح فيها الفرس مصر»

وجرى المصريون على التقسيم العشري وكتبوا الأعداد بما يشبه طريقة الرومان وكانت عندهم علامة لعدد (١) وأخرى لعدد (١٠) وثالثة لمئة ورابعة لعدد الف وهلم جرًا فاذا أريدت كتابة العدد (٣٨٩٧) مثلاً رسموا علامة الالف ثلاث مرات وعلامة المئة ثمان مرات وعلامة العشرة تسع مرات وعلامة الواحد سبع مرات . أما الكهنة في كتابتهم الهيراطيقية فقد اتخذوا تسع علامات خاصة للاعداد التسعة الأولية فقلد الفينيقيون فيما بعد هذه العلامات فصارت الارقام العربية التي نستخدمها اليوم

واتفقت كلمة المؤرخين الأقدمين على القول بأن مصر مهد الهندسة لان إلماعهم الكثير في ورق البردي الى قياس الارض وقسمتها فيه الدلالة على انهم عرفوا المساحة وبعبارة أخرى المبادئ الهندسية التي تعتمد عليها المساحة وعسير أن يعين المرء الوقت الذي اهتدى فيه المصريون الى أوليات الهندسة ولكن يقال بحق ان هذا الوقت غاية في القدم لأنه سبق زمن توجيه الاهرامات وضبط احتفار الأقنية

وفي المتحف البريطاني بردية (رند) وبها الكتاب الفذ الذى تركه لنا المصريون في الهندسة . وتاريخ هذه البردية يرد الى الاسرة التاسعة عشرة ولكن (يرش) يقول لابد انها نسخة منسوخة من مخطوط أصلي كان على عهد كيوبس . وفي الكتاب المذكور مبادىء وأوليات وقواعد لقياس السطوح والجوامد و به أيضاً مسائل يطلب حلها

ولا تنسى أن تطبيق الهندسة كان من ألزم اللوازم على عهد الملك مينا إذ كان هو الذي احتفر أقنية النيل كما قال هيرودوت

ذكر هذا المؤرخ الاغريقي « أن مينا الذي كان أول ملك بمصر شاد الجسور عند ممفيس باشارة من الكهنة فان مجرى النهر حتى عهده انما كان بجوار الجبل الرملي من جهة ليبيا فسد مينا ذراع النهر من جهة الجنوب وأنشأ الجسر على مئة غلوة تقريباً شمالي ممفيس فجف سرير الذراع القديمة وجرى النهر في سرير جديد خط في منتصف المسافة بين الجبلين . ويعنى الفرس في أيامنا هذه بالذراع الجديدة ويقوون الجسور في كل سنة لانها تتحمل ماء النهر وتجريها في غير جهتها الاصلية »

الكيمياء والتطبيب — الكيمياء أو بعبارة أصح ، أساليبها الصناعية ، كانت غاية في الاستخدام بمصر وسندل على هذا عند الكلام على تطبيقاتها في مثل استخراج المعادن وصنع الاصباغ . . . الخ

وكان الطب زاهراً بوادي النيل ولكنه قصر على خليط من التذكرات الطبية الساذجة ومن أعمال السحر . غير أن مصر لم تكن تعوزها الاطباء بل ولا المتخصصون في جميع الامراض وهذا عدا ما لطبيعتها المحسنة ومناخها الجيد من المعونة في شفاء الامراض وعدا الثقة التى للاهلين بالاطباء والسحرة

لم تك للمصريين معارف في التشريح والفسيولوجيا يرتكز عليها الطب لمضادة الخرافات الدينية لذلك، فتشريح الجسم كان غاية في التحريم فاحترم المصريون الجسم ولكنهم جهلوه ثم تصوروه قائماً بنفحة حيوية تأتى من القلب العضو الاعظم في عرفهم . ولم يسلموا أيضاً من الخلط أحياناً بين القلب والرئتين .

والمريض عند المصريين خاضع لمؤثر شرير ، فأهم علاج له الرقى وما اليها ولكنهم علموا أن الخلط في الأغذية للمريض يؤدي به الى اختلال اعضاءه الداخلية فاستخدموا كل الوسائل لتنظيف المعدة والامعاء .

قال ديودور « احتاط المصريون للامراض فعالجوا أجسامهم بالمسهلات والمطلقات والمقيئات وكان فيهم من يستعملها في كل يوم أو في كل أربعة أيام مرة فالزائد من الطعام الذي لم يهضم يصر ويمرض ، فوجب نفيه قطعاً لمسببات الداء واحتفاظاً بالصحة الموجودة . ويعنى الاطبـاء في الحروب والاسفار بالناس مجاناً وأجرهم على الجماعة ويعينون العلاج للمرضى على مقتضى وصايا مكتوبة محررة ممن سبقهم من اكابر الاطباء فاذا لم يوفقوا بها إلى إنقاذ المريض نفضوا يدهم من المسؤولية أما إذا عالجوا بغير الوصايا المذكورة وأخفقوا فتقام عليهم التهمة ويحكم على الطبيب بالموت . وحكم الشارع في ذلك أن آراء من تقدموا وسبقوا بالتجربة والمران الطويل خير من رأي واحد حديث عهد بالفن »

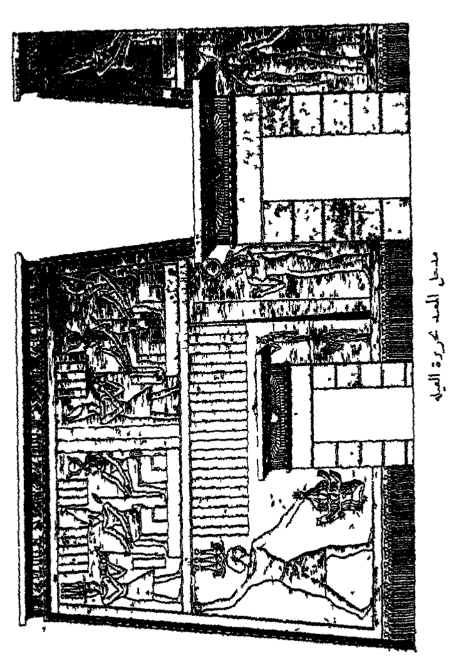
(٣) المعارف الصناعية بمصر

لا نزال نجهل تفصيلات كثير من الطرق الفنيـة التي توخاها المصريون في صناعاتهم ولكننا نعرف النتائج التي حصلوا عليها بها وندرك منها انهم كانوا على رقي عظيم في الطرق المذكورة

ونعرف الكثير عن حال الصناعة في مصر بل نعرف منها اكثر مما عرفنا في سائر وجوه المدنيه المصريه لأن النقوش البارزة ونقوش القبور أرتنا تمثيل كثير من عمليات الصناعه وأفهمتناها ، وفيما يلي بسط لأهم هذه العمليات .

صناعة المعادن — عرف المصريون صناعة الذهب من أقدم عصورهم وعرفوا صناعة الفضة والنحاس والتوتيا وخلط المعدنين الاخيرين نعني البرونز . وللبرونز المصري صفات خاصه فهو بصلابته ومرونته تقرب من الفولاذ وقد أجراه المصريون قبل المسيح بألفي سنة وطرقوه واتخذوا منه الآنية والدمى وطعموه أيضاً من القدم بالذهب والفضة.

وتجري المناقشة الآن في معرفة المصريين بمعالجة الحديد . غير أن الذي يرى المسلات العظيمة وما علاها من النقش والحلى بالرغم من صلابة الغرانيت ، ثم يرى الهيروغليفي الواضح المنقوش نقشاً عميقاً في الصخر عينه مما يفل آلاتنا الحالية بسرعة ، لا يتأخر عن الحكم بأن المصريين لا بد استعملوا الفولاذ المسقي . فاذا لم يبق من آلاتهم الفولاذية أو الحديدية شيء قديم فغير بعيد أن يكون قد أكله الصدأ .

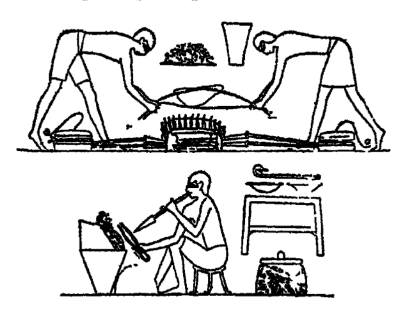


مسطح المعبد بجزيرة الفيلة

على أن البحث هدى إلى قضيب من الحديد كان موضوعاً في قواعد الاهرام الكبيرة بالجيزة . ولوحظ أيضاً ان سلاح الآلات القاطعة على عهد الامبراطورية

القديمة ورد في الصور ملونًا بثلاثة ألوان فمنه ما ورد بلون اسود و بلون أحمر و بلون أزرق ولا يبعد أن هذا للدلالة على أن بعضه من الصوان و بعضه من النحاس و بعضه من الفولاذ . وشوهدت في صور أخرى قليلة القدم أمثلة تمثل القصابين يشحذون مداهم على مشاحذ زرقاء اللون قد تكون متخذة من الفولاذ

وكيفما كانت الحال فالظاهر عندنا أن استعمال الحديد لم يكن كثير الشيوع في العهود الاولى من تاريخ مصر ، وان البرونز كان اكثر شيوعًا . ولا يبعد أن تكون الأحجار أيضًا زادت صلابتها الآن عن ذي قبل في وادي النيل



ادابة المعادن والطلاء بالمياء

أما ان المصريين عالجوا الذهب حق علاجه فحقيقة لاشك فيها . فقد أذابوه وصنعوا منه الاسلاك والرقائق وثبتوها بمطارق على الخشب والمعـدن والاثاث والتماثيل وصناديق الموميا . وطرقوا الذهب ورقًا رفيعًا وزينوا به كتب البردى ، ودقوا أسلاك الذهب حتى استطيع بها التطريز . وللتطريز هذا شأن عجيب ، فكان في مصر ، حتى ولو لم يرسم بالذهب ، من المصنوعات المشهورة بجمالها ودقتها وحسن صورها .

قال النبي حزقيال ينعي على أهل صور رخاوتهم و بذخهم :

« ان الـكتان الرقيق المطرز الوارد من مصر كان اكم منه أشرعة نسفنكم »

وقال سليمان :

« لقد رفعت سريري وغطيته بأغطية قصيرة مما طرزت مصر »

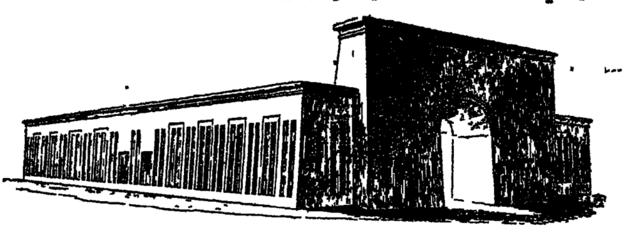
واستعمل المصريون الذهب والفضة من القدم في التبادل ولكن لا كعملة بالمعنى الصحيح فكانوا يقدرون القيمة بالوزن ويتداولون السبائك أو التبر . وقصة اخوة يوسف إذ وجدوا في رحلهم ثمن القمح الذي اشتروه[١] تدل على استعمال الذهب والفضة استعمالاً يقرب من استعمال العملة، ولكنها كانت حلقات بوزن معين تقدر بها الثروة ولم تعرف بمصر العملة الشرعية الرسمية المسكوكة قبل الفتح الفارسي .

معالجة الاحجار الكريمة . صنع المينا . صناعة الاحجار الكريمة الصناعية — عرف المصريون الاحجار الثمينة كالفيروزج . والياقوت من احمر وأبيض وأصفر والكركهان واليشم واللازورد وغيرها وعرفوا تركيبها على الذهب وورد ذكر هذه الجواهر في أقدم أجزاء التوراة مثل سفر الخروج . وفي متحف اللوفر خواتم فيها ما تختم به الاوراق تشبه حلانا العصرية . ولشدة غرام المصريين بالجواهر وقلة وجودها قلدوها بالصناعة تقليداً عجيباً . وعرفوا الزجاج من اول عهد تاريخهم فلونوه بالاوكسيدات المعدنية فكان لهم ما يحاكي الياقوت والزمرد والزبرجد وما اليها محاكاة تخدع العين الى وقتنا هذا . وقد وجدت بعض الفصوص في قبورهم فاذا هي نهاية في الصناعة والاحكام .

وصنع المصريون المينا التي لا ينصل لونها قط وطلوا بها الآنية والدمى المصنوعة من الطين وختموا بها المعادن واستعملوها في الموزاييك فزينت الحلى الخزفية المموهة بالمينا داخل قصورهم وخارجها ووجدت لوحات من هذه الحلى في اهرامات سقارة وهي أقدم اهرامات مصر وشوهد عليها اسم ملك من الاسرة الثالثة . ويدرك جمال هذه الالواح المزينة لقصور مصر بالوانها الضاربة الى الخضرة أو الزرقاء كزرقة الجو ، من رأى آثار الشرق المغطاة باللبنات المموهة بالمينا مثل جامع عمر ببيت المقدس أو

(١) يشير المؤلف الى قصة الصواع المعروفة في القرآن الكريم

واجهة قصر جواليور بالهند أو المسجد الأكبر بلاهور مما تقر به النواظر ولا تعرفه أعيننا في واجهات منازلنا السنجابية اللون باوربا .



صورة منزل مصري قديم كما كان

شغل الخشب والاثاث — كانت داخليات المنازل المصرية وخصوصاً من اول عهد الاسرة الثانية عشرة غاية في الزخرف والزينة ودقة الذوق واتقان الصنعة . فالخزف المحلى بالمينا يغطي الحوائط وبجانبه الواح الجبس . وعلى الدرج والمناضد والنواصب آنية البرونز والذهب والفضة والجبس والفخار مشكلة مطعمة مختومة تزينها المرايا المقطعة الحضراء والزرقاء . ثم تأتي قطع الأثاث المتخذة من الخشب النفيس مطعمة منقوشة مدهونة مذهبة موضوعة في نظام بديع. وهناك أيضاً مصنوعات نفيسة من الآبنوس والزان وغيره نهاية في حسن الصنع وان يكن نفعها في الاستخدام محدوداً . وكانت مقاعد الكراسي تتخذ من حرير اسبرطه . أما السرر فكانت قليلة الحلى يوضع فيها الرأس على متكأ من الخشب أو العاج ولدينا الآن أمثلة كثيرة منها



دهان الخشب

واكثر الأختشاب استعمالاً في النجارة الدقيقة خشب اللبخ والجميز وتمر الهند وما اليه ، يرد إلى مصر الآبنوس وخشب الارز أو تحمله اليها الامم المغلوبة على سبيل الجزية



صنع الاثاث

صناعة الاقمشة — لم تك مصر في صنع القماش أقل منها اتقاناً في صنع الخشب والاحجار والمعادن ، فقد كانت رقة قماشها ومحاسن الوانه مشهورة في العالم القديم . وكانت تصنع القماش الرقيق الشفاف للباس السيدات والكهنة من الكتان أما المنسوج الغليظ فكان من الصوف . والمرجح أن المصريين عرفوا القطن أيضاً ونسجوه ، ولا ريب عندي في أن الاقمشة القطنية هي التي عناها الاغريق باسم (بيسوس) ولكننا لم نجد فيما ترك المصريون أي قماش من المادة القطنية .

ومهر الصناع المصريون في نقش الأقمشة وتبييضها وكانت أهم مادة مستعملة في الصباغة الارجوان والنيلة والسواد واذا طلب البياض غسلت الأقمشة برماد النباتات

والظاهر أن المصريين عرفوا تنبيت الألوان بطريقة المواد القاصرة لها . تشهد بذلك الفقرة الآتية من كتاب التاريخ الطبيعي للعلامة (بلنين) قال :

« يصنعون القماش في مصر بطريقة غاية في العجب . يبدأون بتنظيف القماش ثم يبسطون عليه عوضاً عن الاصباغ عدة مواد لها خاصة امتصاص الالوان ولا تظهر هذه المواد على القماش . فاذا ما القي في مرجل التلوين واخرج بعد مدة وجيزة خرج ملوناً . ومن أعجب الامور ان مرجل التلوين لا يحوي غير لون واحد ومع ذلك تخرج الاقمشة ذات الوان مختلفة تبعاً للمواد الممتصة التي استعملت . ولا تزول الأصباغ بعد ذلك بالغسل . ويزداد القماش المصبوغ متانة . »

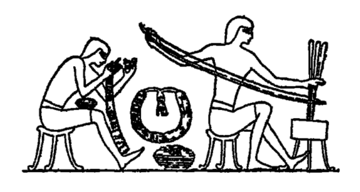
صنع الورق — يصنع المصريون ورقهم من نبات غابي من الفصيلة السبراسية يسمى البردي ومن هذا النبات يتخذون أيضاً حبال سفنهم وأشرعتها . وقد زال هذا النبات الآن من مصر اذا أرادت الحكومة احتكاره في عهد الاسراف الروماني فلم تبح زرعه الا في بعض نقط واجتثت ما كان موجوداً منه في الاماكن الأخرى

ثم استعمل بعد ذلك رق الكتابة وورق القطن فأهملت زراعة البردي فزال نهائيًا من مصر

وكيفية صنع المصريين لورق البردي انهم كانوا يقطعون سوق البردي الى خيوط رفيعة . وفي هذه السوق ما يبلغ طوله ١٠ أو ١٢ قدمًا . ثم يمدون الخيوط بعضها بجانب بعض ثم يضعون عليها طبقة مثلها تحدث خيوطها مع الاولى زوايا قائمة . ويفعلون هذا بعدة طبقات يغشون كل واحدة منها بقليل من الصمغ العربي ثم يضغطون الجميع ضغطًا محكمًا ليزداد تماسكًا و يقل غلظًا ثم يهذبون سطح المضغوط . و يكتبون بعد ذلك ومدادهم ذو لونين أحمر واسود ولكنه قليل الثبات قد يغسل ويزال اذا كان لم يجف أو يكشط إذا جف

وكان اذا عز البردي على بعضهم للكتابة اتخذ بعض الجلود المهيأة أو بعض الالواح الخشبية المدهونة أو قطع الفخار والخزف

صناعة الزجاج والفخار — رقت صناعة الزجاج بمصر رقيًا كبيرًا فقد كانوا يعرفون تلوينه تلوينًا يذكرنا الآن بزجاج ثغر البندقية وكانوا يتخذون منه الكؤوس والآنية الثمينة وجميع المصنوعات الزجاجية



صناعة الفخار

وكان فخار المصريين مشهورًا يصنعونه عاريًا أو مغطى بطبقة من الدهان أو محلى بالمينا الملونة مصنوعه من الرمل والصودا أو الاوكسيدات المعدنية وكثيرًا ما افتنوا في زخرفة الآنية واحكام أشكالها احكامًا يذكرنا بالصناعة الاغريقية ، ولكن صناعة مصر تقدمتها بكثير من القرون

صناعة النبيذ والزيت — استخرج المصريون النبيذ من العنب بعصره كما استخرجوا زيوت الفواكه بعصرها أيضاً . وكان الزيت ثروة لمصر واستعمل طويلاً في المبادلة فكانت تشترى به البضائع . أما المواد التي عصروا منها الزيت فالسمسم والزيتون والكتان والخروع وغيرها واستعملوا الزيت في الطعام والانارة

صناعة التحنيط — كان هم المصريين فى تحنيط الجثث عظيماً ، ولذا ارتقى فن التحنيط عندهم الى درجة لم يرقها في غيرهم من الأمم فحفظت مومياهم اكثر من خمسين قرناً . ومومیا سيزوستريس لا تزال محتفظة الى يومنا هذا بملامح ذلك الفاتح العظيم مما لم يطمع بمثله أعظم ملوك العصر الحاضر

ولم نعرف تفصيلات التحنيط الا من هيرودوت فلنقتصر على ما ذكره فقال :

« في مصر أناس كلفهم القانون باجراء التحنيط فاتخذوه مهنة لهم ، فاذا ماجاءهم أحد بميت أروه نماذج من تماثيل الموتى مصنوعة من الخشب ومصبوغة باللون الطبيعي وأهم هذه النماذج ما أطلقوا عليه اسم أوزيريس . ومن بعده نوع من التحنيط وسط أقل كلفة من الأول ، ثم النوع الأخير . ويخير المحنطون صاحب الجثة بين الأنواع الثلاثة من التحنيط ، فاذا جرى الاتفاق على الأجر ترك أصحاب الميت جثته ومضوا وشرع المحنطون يعملون عملهم . وهـذا وصف أفخر أنواعه وأعلاها : يستخرجون المخ من الخياشيم أولاً بواسطة حديدة معكوفة و بواسطة عقاقير يدخلونها الى الرأس. ثم يفتحون فتحة في الجنب بحجر قاطع من حجارة أتيوبيا و ينتزعون من هـذه الفتحة الأمعاء و ينظفونها و يضعونها في نبيذ النخل و يطلونها أيضاً بالطيوب المسحوقة ثم يملؤون البطن بالصبر النقي المسحوق والقرفة والعطور الأخرى الا مواد البخور ، ثم يخيطون البطن . و بعـد اتمام هذا يملحون الجسم بتغطيته بالنطرون مدة سبعين يوماً ولا يتركونه في الملح اكثر من هـذا . ثم يغسلونه و يلفونه جميعه بالخرق المبللة بالصمغ العربي ، وكان المصريون يستعملونه بمثابة الغراء ، و بعـد ذلك يأتي أقارب

الميت لأخذه فيصنعون من الخشب تابوتاً بشكل الجثـة لوضعها فيه ويرفع التابوت ويسند على الحائط في الغرفة المعدة له » (١)

ووصف هيرودوت بعد ذلك الطريقة الوسطى والدنيا للتحنيط وأهم الاجراءات بهما حقن الجسم بحقنة بها مواد خاصة وبدون فتح الجنب ثم الوضع في حمام الملح ٧٠ يوماً . وذكر هيرودوت عادة سامية تتبع مع جثث السيدات قال :

« أما النساء العظيمات فلا يرسلن الى التحنيط بعـد الوفاة مباشرة . ولا ترسل كذلك جثث الجميلات ، فاذا مضى على الوفاة ثلاثة أو أربعـة من الايام دفعوا بهن الى المحنطين وهم في طمأنينة من ان تمسسهن إهانة »

ولا يقصر التحنيط على حفظ الأجسام الانسانية بل يتعداه الى جثث الحيوانات المقدسة كالهر والتمسـاح فتحت مصر المسكونة الآن مصر أخرى من ملايين الموميا تكدست في خمسين قرناً كما ذكر الدكتور جيرار .

صناعة العطور وأدوات الزينة — أكثرت مصر من صناعة الاعطار والروائح واتخذت المراهم والكحل والأطلية للحواجب والاهداب والشفاه ووضعتها في قوارير صغيرة من المينا الملونة فافتتن بهـا النساء فاستعملنها وأتقنها أمام المرايا المعدنية ذوات الأيدي البديعـة الصنعة . وأكثر المصريون أيضاً من صناعة الشعر المستعار يحمله الرجال في الاحتفالات لأنهم حليقو الرؤوس دفعاً لحر البـلاد . وفي متحف اللوفر موسى مصرية قديمـة سلاحها من البرونز غاية في الحـدة وشكلها شكل الموسى الانكليزية العصرية

وصنع المصريون أيضاً الزهر الصناعي كما يصنع الآن في أوروبا فلم يقصر المصريون برغم روعة آثارهم وجلالها وضخامتها في شيء من الزخرف والرقة والظرف فوجدنا في القبور حتى لعب الأطفال وحتى خيال الظل وأثار التعلق بكل ماهو صغير ان المرء ليـدهش لتناول المصريين جميع صور الحياة وعلمهم في كل فرع من

---

(١) يكلف التحنيط بالطريقة الاولى ٥٥٦٠ فرنكا من نقود فرنسا وتكلف الثانيه ١٨٤٠ فرنكا . أما الطريقة الثالثة فتكاليفها قليلة المؤلف

فروعها بهمة عجيبة وطلبهم الزخرف وهم أولئك المجدون المفكرون الذين يكثرون من القبور لوجود فكرة الموت نصب أعينهم إلا أنها فكرة لا تروعهم فليس الموت في عرفهم انتفاء الحياة ، ولذا زينوا قبور أجدادهم كتزيينهم المنزل الجديد المعد لسكنى العروس

اننا وجدنا حياة المصريين بتفصيلاتها الحقيقية في مقابرهم لا في تلك المساكن التي خربتها الحروب او أتى عليها الزمان . في تلك القبور التي اختفت في بطن الأرض قروناً وجدنا المومياء الباردة الصامتة وبجانبها كل ما استعملت أو أحبت من لوازم وزينة وحلى وأعطار وزهر . كأنها ستنهض من نومها للذهاب الى أحد الأعراس . وما فعل المصريون الا لاعتقادهم بأن الروح اذا عادت للراحة في مكان الجثة وجدت كل ما كان يحلو لها في الوجود وعرفت عطف ذويها عليها

وليت شعري اذا عادت هذه الأرواح لزيارة قبور أصحابها أيؤلمها اننا جدبنا الحرص على تعرف الماضي الى هتك أستار هذه القبور ونحن انما نتنسك فى حفظها واحترام جميع ما نجده بها . فاذا فسرناه للانسانية الجديدة وبهرنا به عيونها فقد أعدنا شعب الفراعنة الى الحياة التي كان مشغوفاً بها .



(صورتا صناعة الجلود وصناعة الاحذية)

الفصل الثامن

الآداب المصرية

(١) قدمها وأهميتها

الكتب المصرية من أعرق كتب العالم في القدم فان ورقة البردي التي سميت باسم (بريس) وهي بدار الكتب الاهلية بباريس . تعد أقدم من اشعار هوميروس وأقدم من كتب التوراة ، يرجع عهدها الى الأسرة الثانية عشرة ففيها إذن ما خطته الأقلام منذ خمسة آلاف من السنين . وأغلب المخطوط انما هو صور لكتب أقدم منه . وقد تضمن بحثاً أخلاقياً ألفه (كا كنا) في حكم الملك سنيفرو من الاسرة الثالثة . ومعلومات فتاحوتب التي ترجع الى الأسرة الخامسة . ففي و معنا اليوم إذن أن نقرأ كتباً شهد مؤلفوها بناء الاهرامات

ومؤلفات العصور التي تلت ذلك في الطب والعلوم والدين وغيرها تتضمن شذوراً يؤكد المؤلفون أنهم نسخوها من أوراق بردية يرد تاريخها الى الأسرات الاولى او الى ما قبل مينا يوم ان كان الآلهة يحكمون الارض

ولدينا براهين تدل على أن مصر كانت تملك مجموعات كثيرة من التواليف منذ بدء تاريخها فقد وجدوا في أحد قبور الجيزه بياناً بالألقاب التي تلي اسم عظيم من عظماء الاسرة الخامسة ومنها أنه كان أمين دار الكتب لفرعون أو أمين دار الكتب الملكيه . فانظر الى أي حد اهتمت مصر من سبعة آلاف من السنين بالمؤلفات حتى أقامت لها داراً خاصة وموظفاً خاصاً يتولى العناية بها

وكان الشغف بالكتب يتزايد على الدوام بوادي النيل لان تعلم الآداب في مصر يمهد السبيل الى أرقى المراكز فيتعلم المرء ويجتاز الامتحان ثم يجعل كاتباً ملكياً

وتفتح في وجهه بعد ذلك أبواب الوظائف السامية في الجيش والكهنوت والحياة الملكية

كتب الكاتب الملكي (دواوور — مي — خاردا) في تعليماته لولده (بابي) بعد ان شرح له عناءه فقال :

« لقد رأيت جميع المهن ولكنني حببتك في الآداب أعرض لك بهاءها أمام وجهك فهي أهم من جميع المهن وما هي بكلمة هباء . ان من يعمل على الاستفادة منها منذ صغره يكون محلاً للاجلال فيوفد للقيام بالمهام . أما الذي لا يصيب منها شيئاً فيبقى في الفقر والشقاء . »

ثم قال « وأنا اذا كنت قد وجهتك إلى خناعي[1] فلست محمولاً الاّ بدافع من حبي لك لأن اليوم الذي تستفيده في المدرسة يبقى الى الأبد وتبقى الأعمال فيه بقاء الجبال . فبادر ثم بادر لتعرف بين الناس وتحسب منهم »

ولم يدرس المصريون للكسب والوظائف فحسب . بل قالوا ان الوقوف على الاسرار الدينية والنصوص المقدسة يجعل النفس تظفر في المحن التي تتلو الموت وتفتح امام الانسان المنازل السماوية . ويحوي كتاب الموتى الكثير من الصلوات والصيغ التي بدونها لا يستطيع الميت أن ينجو من عذاب النار ولا تتاح معرفة هذا كله إلاّ بالتعليم

والفت مصر المغرمة بالكتب عدداً عظيماً منها في أنواع مختلفة . فمن كتب دينيـة الى دواوين للشعراء الى مراسلات الى سنويات وتواريخ ومن نبذ علمية وأخلاقية وقضائية الى وثائق واحصاءات . حتى الروايات نفسها موجودة بأوراق البردى . ويضاف على جميع ما تقدم أدبيات الآثار القديمة وما لا يحصى من الكتابات التى نقشت على الصخور وغيرها وعلى الغرانيت

وقد كان لهذه الكتب في مصر ما صار لها عند غيرها من الشعوب من ذلك العصر الذهبي الذي بلغت فيه الاوج فتمثل مصر في عهد الامبراطورية الوسطى

---

(١) خناعي مدينة بالوجه القبلي مشهورة بمدارسها الادبيه

الاسرة الثانية عشرة ، وتمثلها في الامبراطورية الحديثة الاسرة الثامنة عشرة ويستمد العصر الأدبي الثاني روحه من العصر الأول فكتاب الاسرة الثانية عشرة هم اذن نموذج الأدب في مصر القديمة

(٢) صفات عمومية للأدب المصري وكيف استمد مما استمد منه فن العمارة

قبل أن نخوض في تفصيلات المؤلفات الأدبية في مصر نقول أولاً بعض كلمات عن صفتها العمومية وتطورها .

لم يكن هذا التطور على أية حال تدريجاً في سبيل التقدم والاتقان فالأدب المصري ما تقدم عهده إلاّ وابتعد عن الطبيعة والسذاجة . وكان حب الكسب في مصر عقبة في سبيل التأليف الذاتي المبتكر فاتخذ الأدب مهنة ووسيلة لادراك الغرض وأصبح الكاتب الملكي خزانة كلمات وتعبيرات مستظهرة لا محرراً حقيقياً يأتي بجديد من الفكر أو حديث من التعبير أو مبتدع من التصورات . ولربما كان أبدع النبذ في أدب مصر تلك المقطوعات القديمة التي خلفتها لنا الامبراطورية القديمة ففيها سلامة الفكرة وسذاجة التعبير وكلما تقدمنا في التاريخ رأينا التأنق والتكلف في الاسلوب والتعقيد في الافكار وخلو الكتابة من الروح كأنها كتابة التلاميذ أو جماعة الموظفين الذين ينسجون على منوال لا يتغير

أي فرق عظيم بين برد تلك الصفحات التي لا تحرك شيئاً منا و بين صرخات العواطف التي نسمعها في كتب (الفيدا) أو بعض الاناشيد العبرية . لم يبد لنا في كتب مصر شيء عن الألم وعن الحب حتى ليظهر ان مصر لم تك تعرف هذين الشعورين اللذين يجعلان من المرء كياناً حياً ذا حساسية ولا يخفى أن الألم والحب هما اكبر مثير للعبقرية الأدبية فاذا تكلما باخلاص كلمة رن صداها وتردد في النفوس إلى أجيال بعيدة

ان المصري لم يكابد من الشدائد إلاّ القليل . إذ عاش في مناخه المعتدل بجوار النيل الذي أغدق عليه ما يزيد عن حاجته الضئيلة فلم يعرف ألم الحرمان ولا نكد

الطبيعة . واذا كان المصري قد استشعر السأم من سهوله الوضاءة المحرقة فانه قد جهل سوء الأحلام التي تنشأ على شواطىء الاقيانوسات الموحشة وفي ظل الشفق الاغبر تحت السماء الغادرة . انه لم يتذوق قط مرارة الانفعالات التي تأتي من التفكير في الفراق الابدي لأن الموت عنده وفي عرفه غير موجود والقبر هو « المسكن الطيب » والمقبرة « المدينة الخالدة » و اوزيريس إله الموت « السيد الرباني للصمت » . ولم يعرف المصري اصطلاحاً يعبر به عن العدم لأنه لا يعتقد به

ورد في ورقة من أوراق البردى أن زوجاً ظن أن زوجته الميتة تعاكسه عنوة بظلها فكتب اليها يهددها وقال ان الكتاب يكون مستنداً امام محكمة اوزيريس ثم ذهب فقرأ الكتاب على قبر زوجته الشريرة وعلقه في رقبة مومياها واقتنع بأن الميتة ستتأثر جد التأثر بهذا المكتوب ....

ولم يتألم المصري أيضاً من الظلم والجبروت لأن سروره كان في الطاعة والاذعان لفرعون فيخضع له كإله ويجله كوالد . وكانت الطبيعة رحيمة به باسمة له فما أرته يوماً مجاعة ولا أتحت على حصاده بجليدها ولا هدمت بيته بريحها الصرر العاتية . ولذا لا نرى في اناشيده تلك الصلوات الحارة التي كان ينشدها الآري نزيل شطوط الهندوس يدعو بها ربه أن يجنبه الجفاف ويرسل عليه أبقار السماء يعني السحب المحملة بالماء

لقد مجد المصري النيل الذي يجيء له بالخصب ولكنه لم ير في تمجيده التوسل الحار لأنه يعرف دقة أوقات الفيضان ونظامها فلا تخطئه هذه الدقة ولا هذا النظام ولذا ورد نشيده عن النيل فاتراً فوضع النشيد في عهد الاسرة الثانية عشرة وقصر على وصف المسرة والابتهاج بالفيضان كما يستدل عليه من المقتطفة الآتيــة . ورد في النشيد :

« سلام أيها النيل . لقد ظهرت بنفسك على هذه الارض وجريت بسلام لتمنح مصر الحياة . أيها الإله المستتر الذي يجيء بالظلمات في اليوم الذي يريد . يا ساقي الرياض التي خلقتها الشمس لحياة جميع الانعام . انك تروى الارض وانك طريق السماء تتنزل منه . أنت صديق الخبز ، مضيء كل مسكن ومولى الاسماك

عند ما تعلو الاراضي المروية . ان أي طائر لن يعتدي على الخيرات النافعة . أيها الخالق القمح والحامي الشعير . انك مخلد المعابد وانك راحة الايدي ومادة عمل لملايين من التعساء »

اذا كان المصري لم يعرف الألم في أشد حالاته فهو لم يعرف الحب أيضاً ولم يكن ارتباط الرجل بالمرأة عنده اكثر من عمل فسيولوجي لا يشوبه الشعر ولا تخالطه العواطف القوية . وكانت الرابطة الزوجية غاية في اللطف ولكنها غاية في الهدوء أيضاً بمصر وكانت المرأة مساوية لزوجها وحب الزوجة انما يقوم على قاعدة الاشتراك في المصالح . وكان الزنا معاقب عليه الاّ ان عقابه يماثل العقاب على السرقة أو أية جريمة أخرى تلحق الضرر بالغير

قال ديودور « ان الزنا اعتبر في مصر ذا مضار ثلاث كبرى . العار . وفساد الاخلاق . واختلاط النسل » على انه لم يكن للغيرة شأن كبير فيما يعاقب به الرجل زوجته المذنبة . ولا تكاد تشعر المرأة بمثل هذه الغيرة أيضاً اذ تدع الرقيقات يرحن ويجئن حول زوجها وهن عاريات ولا يزعجها أن يتخذ منهن خليلات

كان الحب الخارج عن الزوجة لهو أو مجانة وليس في الروايات التي وضعها المصريون تفصيل مؤثر أو عاطفة دقيقة

ورد في قصــة مصرية قديمة ان الامير ساتني رأى وهو مار في عرصة معبد فتاح امرأة غاية في الجمال لا تضارعها امرأة سواها . وكانت محلاة بكثير من الذهب فاستعلم عنها فعرف انها ابنة الكاهن الكبير لبو باسطه فأرسل اليها مع خادم برسالة قال فيها انني اعطيكِ عشرة قطع من الذهب اذا قضيتِ معي ساعة . فلم يتملك الحسناء الغضب ، كأنها ترى الطلب طبيعياً ولكنها أجابت فقالت : انني عفيفة طاهرة الذيل ولست بغياً فاذا جد بك الحرص على الاستمتاع بي فشد رحالك إلى منزلي ببو باسطه اهيىء لك كل شيء وتستمتع من دون أن اخاطب في هذا نساء الشوارع . ولما توجه الامير ساتني إلى هذا الموعد وعدته بنيل الأرب اذا وقع على ورقة بأنها ترثه من بعده ولم تنفك تقول انها عفيفة وانها طاهرة الذيل

وفي حكاية الملك رامبسينيت التي نقلها لنا هيرودوت رأينا هذا الفرعوني يسلم ابنته للدعارة ويشترط عليها أن لا تسلم نفسها لأحد قبل أن يقص عليها كل ما صادفه في الحياة من الشرور والاشرار ، ومقصده من ذلك أن يضبط لصاً من اللصوص أعياه تتبع أثره

كانت صورة الحب بوادي النيل في الزواج الجدي أو المصاحبة الوقتية ولا مطمع فيما وراء جدران المنزل الابوي ولا جري وراء ذاك المطمح الاسمى الذي يجري وراءه غير المصريين طول الحياة دون أن يدركوه . كان المصري يتزوج من اخته ويرى هذا من الامور الطبيعية الشائعة . وفي حكاية الامير ساتني ان امرأة الملك منفتاح قالت لزوجها ان « اهوري ابنتنا تحب نوفر كفتاح أخاها فلنجمع بينهما بالزواج كما هي العادة »

في مثل هذا القطر الذي لم ينبض قلب أهله بالغرام الشديد ولم يستشعر بنوه الاحساسات القوية لا ينبغي أن نطلب في تواليفهم الأدبية تلك الصفحات الحارة من مثل حب (راما) و (سيتا) في رمايانة الهنود . أو مثل لوعة (ديدون) المتروك وشكواه المرة . نعم لا نجد في أدب مصر من مثل قول القائل « أنام أنا وقلبي ساهر وأسمع صوت حبيبي الذي يدق بابي » أو قوله « كأنما ذابت روحي لدى سماع صوته فاني أبحث عنها فلا أجدها وأناديها فلا تجيب » . أو قوله « أقسمت عليكن يا بنات بيت المقدس اذا رأيتن حبيبي فقلن له انني دلهني الغرام »

ليس في الروايات المصرية فقرة شعرية حقيقية الا في رواية منها، بطلتها ليست من بنات النيل بل أجنبية ، سورية . جاء في هذه القصة المسماة رواية (الامير المختار) ان ابن ملك مصر تسلق الجدار الى نافذة تلك الصبية السورية فتأثرت هذه بالجهود التي بذلها للصعود اليها طالباً القرب منها والاقتران بها ولكنها صودمت برفض أبيها لهذا الخاطب فصاحت تقول « أقسم بفرع هارما كوتي اذا انتزعوه مني فلن أقرب طعاماً أو شراباً وأقضي الساعة » فذهب الرسول الى أبيها وأطلعه على هذا القسم فأرسل الرجل اناساً لقتل الشاب الخطيب عندما يكون في

منزله ، فقالت لهم الصبية « أقسم بفرع اذا قتلتموه عند مغيب الشمس فاني أموت ولا أعيش ساعة واحدة اذا انفصلت عنه » .

ان أشد عاطفة كانت عند المصريين يعربون عنها بغير التعبيرات الفاترة والتعقيد اللفظي ، ويصورونها باخلاص وتأثر ، انما كانت عاطفة حب الوطن . حب وادي النيـل الذي أسموه دائماً (الارض كلها) كأنه لا دنيا سواه . هذه العاطفة هي أجمل ما أعربوا عنه واكبر ما ضمنوه حقيقة تأثرهم في أدبهم القديم . ولقد ورد مثل من هذا في ترجمة حال (سينه) من رجال عهد الاسرة الثانية عشرة. كتب هذا الأفاقي ترجمته بنفسه وأودعها وصف فعاله ونجاحه وكان قد نفي من مصر بتهمة باطلة فهرب الى سوريا فأقبلت عليه الدنيا وأصبح شيخاً لاحدى القبائل وكثرت له الذرية وازدادت الثروة غير انه وهو في الاوج من السعادة كدرها عليه الحنين الى الوطن فقال : « تركت بلدي عارياً . وكسوتي الآن رقيق البز من الكتان . وكنت وحيداً تابعاً . وعندي الآن الـكثير من الخدم . ان بيتي جميل . وملكي واسع الرقعة وذكري يخلد في معبد الآلهة . ولـكني يا مولاي الملك . لكني ألوذ برحمتك فأعدني الى مصر واعف عني ليلحق جثماني بالبلد الذي قلبي فيه . أتكون معارضاً في أن يستريح جسمي في البلد الذي ولدت فيه . ان العودة إلى بلدي هي السعادة . ان قلب هذا المبعد النائي ليذوب اشفاقاً على التشريد الذي قضي به عليه وعلى عيشه في الارض الاجنبية . هل لهذا الغريب من سكن في كل يوم . انه يسمع الدعاء عن بعد فيطير بروحه الى الارض التي درج عليها قبل غيرها. والى الموطن الذي كان منه المجيء »

انتهى كلام (سينه) وعندي انه أصدق كلام انساني عرفته في الادب المصري المحدود المرامي المتقبر كسفوح الاهرام . الخفي المعنى كتبسم أبي الهول

ان أدب أي شعب وفن العمارة عنده لهما دائماً وجهة واحدة فالحكم المكتوب كالحكم المصور على الحجر . ولقد دللنا على هذا في حضارة الهند ، فأدبها فياض بالتفصيلات . كث ، شديد العاطفة ، عظيم كما في المعابد الخاصة بها . وهذه الحقيقة موجودة بعينها في وادي النيل . تبدو لنا إذا نقلنا النظر بين الجمل الرتيبة المدونة

على البردى وبين الظلال الخطيرة الابدية للمسلات والعمد والمعابد الضخمة المبنية على الفكرة الثابتة .

يتولى الانسان التعب النفسي من ثقل خمسة آلاف من السنين تقضت في عمل ونشاط واستسلام لاقامة تلك الكتل الصخرية وتكديسها والصبر على نقش ذلك الهيروغليفي الذي لا ينطق بشيء من الحب ولا من الشكوى ولا يعرب عن زفرة واحدة يهتز لها نياط القلب البشري على بعد العهد وتصاقب الدار

ان تلك الكتل العظيمة . تلك الأبنية التي لم يُقم البشر أروع منها انما هي أقل فصاحة وانسانية من جملة ساذجة من جمل (الطفل العجيب) مثلاً عند ما كان يحكيها لجمع من الصيادين الغاليليين ، او تلك التفكيرات العميقة (للراهبة) إذ فيها تقول :

« ان ذكرى الحكيم لا تدوم خالدة كما لا تدوم ذكرى الأحمق فالزمن والمستقبل كفيلان بجر ذيل النسيان على الذكريين وما يموت العالم الا كما يموت الجاهل

« لذلك كانت الحيــاة تضجرني وبخاصة اذا تدبرت ان الالم واللذة تحت الشمس ليسا الأ غروراً وخديعة للعقل »

وسندرس بالتفصيل من الآن أهم التواليف التي تركها لنا المصريون ولا نعنى هنا إلا مثلاً جزئياً من آلاف الكتب التي كدست في مكتبات القصور ولا ينسى القارىء أن المعلومات العلمية عن بعض الموضوعات لم يصل الينا منها شيء

(٣) المؤلفات الدينية ومؤلفات الاخلاق

يعد أقدم الكتب المصرية من نوع الكتب الفلسفية . ولقد أبنا فيما سبق عن الكلام على بردية بريس المردود عهدها الى الامبراطورية القديمة انها نهاية كتاب في الاخلاق لكاكيمنا وابعض تعاليم فتاحوتب

والمعلوم في التاريخ أن فتاحوتب كان ابن ملك من الاسرة الخامسة فلما طعن في السن اراد أن يعود على أبناء وطنه بثمار خبرته الطويلة فلخصها لهم في تعاليم ومواعظ خلقية تنفع في العمل فكان أرفع مبدأ وضعه قاعدة للسلوك ، الطاعة واحترام

الامر واذعان الولد لأبيه اذا كان صغيراً ، فاذا كبر أذعن للملك لأنه ابو الشعب . وعد هذا الواجب الأول . قال

« يشيخ الابن الذي يطيع أباه و يصل الى حد الكبر لان طاعة الابن للاب هي المسرة وهي ذكره الذي يذكر به في أفواه من يعايشونه من أهل وطنه »

« ان الابن الخاضع المطيع يسعد في حياته بطاعته فيعمر و يصل الى القبول . ولم أصل أنا الى سن الشيخوخة وأبلغ حد العشر بعد المائة إلا برضى الملاك ورضى أسلافى ، إذ قمت بواجبي نحوه ونحوهم ».

وأبان فتاحوتب ايضاً كيف تكون السعادة في البيت قال :

« اذا كنت عاقلاً فأجد تموين بيتك واحبب امرأتك ولا تشاحنها . وغذها وزينها فان ذلك قوام أعضاءها . وعطرها ومتعها ما حييت فهي ملك يجب أن تكون جديرة بالمالك ولا تكن معها فظاً غليظاً » .

وقد وجدت معظم الكتب الدينية في القبور اذ كان المصريون يضعون منها نسخاً مع الموتى اماناً لهم وجوازاً وتميمة عند اجتيازهم المحن التي تسبق في الحياة الآجلة حكم اوزيريس ومدخل النهاية

وليس كتاب الموتى إلاَّ أحد المجموعات الدينية، الاَّ انه أهمها وأشهرها واكثر ما بقي منها وفي جميع البردى الذي وجد فقرات منه . وهناك نسخة تامة بالهيروغليفي في متحف تورينو واحرى بالمكتبة الاهلية ونسخة غيرها بالخط الهيراطيقي في متحف اللوفر

وحقيقة اسم الكتاب : « كتاب الخروج الى النهار » او الى النور. وهذا يدل على فكرة المصريين في الموت. فعندهم ان النزول في القبر دخول في حياة جديدة أكبر مجداً مما تقدمها . فيها يرى الميت الصالح النور السماوي والنهار الالهي .

يقول الميت ان الحياة تسربل بالليل . والتسربل بالليل هو الموت ، مشبهاً بغروب الشمس أو ببدء حياة عالية حقيقية

ولم يؤلف كتاب الموتى من مقطوعة واحدة ولا في زمن واحد ، فقد جمع بين الأناشيد والصلوات والأوصاف والمواعظ والضوابط السحرية التي وضعت في

تواريخ مختلفة فمن الكتاب ما وجد في القبور من اول الأسرة الحادية عشرة أما النسخ التامة فلم تظهر إلاّ في عهد الاسرة الثامنة عشرة

وفي الكتاب نفسه أن الفصل الذي الفه هوروس لأبيه اوزيريس وجد اتفاقاً ومعجزة في الغرفة الكبيرة بقصر هسيتي أحد ملوك الاسرة الاولى .

وفي الفصل الآخر انه وجد في هرموبوليس على مكعب من الحجر مكتوباً بالازرق تحت أقدام الإله توت وتاريخ وجوده عهد الملك منقرع أو ميكرينوس باني الاهرام الثالثة . واسنا نبحث هنا في تواريخ الموجود واتفاقاته ولكن الثابت عندنا أن بعض أجزاء الكتاب وفصوله غاية في القدم

ولقد تكلمنا في فصل ديانة المصريين على أهمية كتاب الموتى وقلنا ان الميت يكتسب به في زعمهم الخلود . ونقول هنا ان الكهنة كانوا يرتلون فصولاً من هذا الكتاب وقت احتفالات الجنائز . وقد تجتمع الأسرة عند احياء ذكرى فقيدها فتتلو فصولاً أيضاً في غرفة القبر ويكون الميت في اعتقادهم حاضراً بروحه بجانب مومياه فيستطيع حينئذ أن يستعين بها على اجتياز المحن الى الحياة الخالدة . ويغلو المصريون في الحيطة فيكتبون بعض فقرات من الكتاب على أربطة المومياء وعلى صورة الميت وما يوضع معه في نعشه وعلى الجعل، وهو رمز الخلود، ثم يضعونه في صدره. ومن هنا حصلت لنا أمثلة كثيرة من فقرات كتاب الموتى وتعذر تعيين النص النهائي وكثر الغلط لكثرة النساخ ولما زاده بعضهم على الأصل زيادة في ارضاء أهل الميت

ويرى بعض المختصين بتاريخ مصر القديم ان تسلسل فصول الكتاب منظمة تبعاً لبرنامج مقصود . ويرى غيرهم أنه تألف من مجموعات لا لحمة بينهـا ولا تسلسل الى غاية معينة . والظاهر ان الغاية من تمجيد الميت تم إدراكها حتى منتصف الكتاب اما محاكمة الروح أمام محكمة أوزيريس ونيل الجزاء الأوفى ففي آخر الكتاب . هذا ما قالوه وعندنا أن الاعتراض الأخير لا محل له ، فمحاكمة الانسان أمام محكمة اوزيريس لا تكون على الأعمال التي أتاها في الحياة الأرضية فحسب بل على المسلك الذي سلكه بعد الموت وقبل الوصول الى المحاكمة . وتختم المحن المذكورة بعد المحاكمة بالقبول في زورق الشمس

ولقد يستطيع القارىء أن يتتبع في كتاب الموتى برنامجاً معيناً . ففي الفصول الأولى منه التوسلات والدعوات وهى أهم قسم أدبي في الكتاب . وتوجه هذه التوسلات والدعوات الى عدة آلهة استعطافاً على الروح الصاعدة اليها . أو الى الشمس حيث تستجلى هذه الروح البهاء وهى خالصة من اللحم . وقد أتينا في فصل الديانة على أجمل الأناشيد والأدعية الخاصة بذلك . ثم تأتى فصول أهمية علم ماوراء المادة ، فالميت لا يؤتى النعيم الأبدي الا إذا كان يعرف خفايا النفس والدين ويبطن سر طبيعة الآلهة وطبيعة العوالم .وهذا العلم الخفي مدون في فصل طويل هو الفصل السابع عشر ويعتبر خلاصة للميتولوجيا المصرية ووراء كل اسم ايضاحه أو ايضاحاته تبعاً لاختلاف مبادىء المذاهب الدينية . والى القارىء فقرة من هذا الفصل الغريب :

« إنني أنا الذي لا يقيم أي إلّه في طريقه عقبة . »

« إذا سألت فقلت من هذا قلت توم في هالته بل رع في قرصه بازغاً في الأفق الشرقي من السماء . »

« إنني الأمس وأعرف الغد »

« تقول من هذا ؟ »

« وأقول أمس هو أوزيريس . والغد رع في اليوم الذي يهلك فيه أعداء المولى سيد الجميع . في اليوم الذي يكرس فيه إبنه هوروس . أو بعبارة أخرى في اليوم الذي نعين فيه التقاء نعش أوزيريس بأبيه رع فيصدر فيه الأمر بمحاربة الآلهة عندما يأمر أوزيريس سيد جبل أمانتي . »

« وما امنتي ؟ »

« انه خلق أرواح الآلهة عندما أمر أوزيريس سيد جبل امانتي . وبعبارة أخرى ان امانتي التحريض الذي يثيره رع فكل إلّه يصل اليه يقاتل . واني لأعرف هذا الإلّه العظيم الذي يسكن ذلك الجبل . انه أوزيريس » وقس على هذا . . .

واذا ما أخذ الميت من هذا العلم كفايته طلب الى الآلهة أن يردوا إليه اعضاءه وأذرعه وأرجله وقلبه ليحارب الأعداء الذين يلتقي بهم، فاذا أجيب طلبه واستمع دعاؤه صلح للسفر في رحلته الخفية .

يقول الميت « ردوا إليّ فمي لأتكلم . ساقي لأمشي . وذراعي لاصرع أعدائي. فأنا بعثت . وأنا موجود . فافتح السماء وافعل ما أمرت به في ممفيس . »

أما ما أمر به فسلسلة من الكفاح اذ يقاتل أعداءه ثقالاً ويتعرض لأهوال جسام فيحارب التماسيح ويفر من الشباك الخفية ويبطل أعمال الرصد ويسلم نفسه للربان الحقيقي لزورق الشمس ويذكر بلا غلط أو تلعثم أسماء جميع أجزاء الزورق الخفي . وانما يستعين على معظم هذا بالصيغ السحرية الموجودة بكثرة في كتاب الموتى اذ كتب بجانبها « ان هوروس كرر هذه الرقى أربع مرات فصرع أعداؤه وذبحوا . فعلى الميت أن يكررها فيسقط أعداؤه ويذبحون ».

ويجب أن يكتب بعض هذه الصيغ « بالحبر المصمغ ويعاد عليه باللون على قطعة من البردي الملكي ثم توضع في عنق المومياء يوم الدفن كتميمة تجعل الميت بين الآلهة فيتحد بخدم هوروس »

وبالتحوطات السابقة يعبر الميت النهر الخفي ويذهب لفلاحة حقول (عانرو) ويعينه على ذلك خدم عديدون نقشوا على الحافات الداخلية للقبر أو مثلوا بدمى صغيرة . ثم يمثل الميت أمام محكمة أوزيريس ويذكر الاعتراف السلبي (نقلنا منه في فصل سابق) فاذا وزن قلبه بالميزان الالهي ووجد ثقله كافياً جرى الحكم بأنه أهل لمعيشة الآلهة فصار اليها .

وبمعظم فصول كتاب الموتى صور صغيرة جمعت بين السذاجة والخشونة لتتمثل الكائنات الخفية في عالم ما بعد الموت . وفيها صور تمثل الميت وأمامه روحه طائرة . والاله رع جالساً في زورق يزجيه الميت . ثم جميع مناظر الفلاحة في حقول (عانرو) الى غير ذلك

هذا هو كتاب الموتى أجملنا وصفه ومنه يعلم القارىء انه مقصور الأهمية على

تعريف الأفكار الدينيـة المصرية وكيفية فهم المصريين للحياة والموت وواجبات الانسان الأبدية والآلهة . اما الوجهة الأدبية منه فضئيلة

نعم ان به بعض أناشيد ساميـة المعنى وبعض تشابيه جميلة عن سر الشمس وجريان النيل إلا أنها ضائعة وسط الغموض ومركوم الصيغ السحرية الغريبة وبجانب المكررات العـديدة فلا تضاهي قط الجمال الذي نراه في الكتابات الدينية القديمة أمثال الفيدا والمزامير وسفر أيوب

وبجانب كتاب الموتى كتب أخرى وجدت في القبور مثـل (شكوى ايزيس ونحت حات) أو كتاب (ما في عالم بعد الموت قبل الحساب) وفي الكتاب الأول وصف سر الشمس وما تلقاه عند ما تنزل تحت الأفق، وفي الثاني الكلام عن سيرها المجدّ أثناء النهار . وقد وجدوا في هذين الكتابين المبادىء الشديدة الشبه بالوثنية وتعدد الآلهة . والقريبة مما يشبه التوحيد . فمصر أيضاً أدركته وأعربت عنه

لقد كانت الشمس كما قلنا أهم آلهة مصر . يرى فيها المصريون مبدأ خافياً يحيي وينبعث في كل شيء فهي بمثابة الخالقة وروح العالم

وجد بروكش في نشيد على حائط معبد بالواحة الخارجة هذه الاقوال :

« الله موجود في كل شيء . وروح شو في جميع الالهة . انه جسم الانسان الحي . خالق الشجرة المحملة بالثمر . مجرى الفيضان المخصب وبدونه لا يعيش شيء في الأرض . انه سائح في العراء ليفصل السماء عن الأرض ثم ليجمعهما . وهو خفي في كل شيء . انه الواحد الحي وفيه يعيش كل شيء الى الأبد . »

وغريب أن يكون هذا قريباً من بعض أناشيد (أغنى) أو النار الموجودة في الفيدا للهنود وما يعنيه الهنود (ببحر السماء) يعنيه المصريون (بنون) أو المحيط الأولي . ومثل هذا التشابه بين لنا أن المعقولات الانسانية تتقارب في درجة متشابهة من درجات التطور . وان المبادىء السامية كالوحدانية لا ترى الا كلمع البرق وسط التخبط الديني للاوائل ، ولا بد أن يشوبها شيء من الخرافات مثل عبادة النار أو الشمس أو عبادة الموتى .

(٤) المؤلفات التاريخية

خطت الكتب التاريخية المصرية في معظمها على صحف من الحجر فالنقوش التي نقشت على المسلات والعمد وواجهات المعابد هي التي حفظت ذكر الحوادث الكبيرة التي وقعت في عهود مختلفة وتسلسلت وتعاقبت. أما داخل القبور فقد حوى من أقدم الأزمنة ترجمات حال الأشخاص على اختلاف طبقاتهم

وكان بجوار الملوك كثير من الكتبة الرسميين مقصور عملهم على تدوين أعمالهم وحركاتهم ثم ينقش أهم ما يكتبونه على الآثار وقد هدانا شمپوليون الى فك رموز تلك النقوش

ولسنا نتبسط في هذا الباب فقد لخصنا أهم ما احتواه عند كلامنا على خلاصة تاريخ مصر

ولكن في الأقاصيص التاريخية التي قرئت على البردي بعض ما لا يصح أن تفوتنا الاشارة اليه . ومن ذلك مذكرات سينيه المشهورة من عهد الاسرة الثانية عشرة فقد أخذت عن بردية مكتوبة بالخط الهيراطيقي في متحف برلين

كان سينيه المذكور رجلاً شديد الخلق مغامراً ، أجبره غضب الملك على مغادرة مصر والبحث عن العيش في صقع آخر ، فذهب إلى سوريا وانضم إلى قبائل من الرحل ووصل بشجاعته ومهارته الى قيادة إحداها وفتح الفتوح وأحرز الثروة وتزوج وجاء بكثير من الذرية ، ولكنه كان وهو في أوج سعادته لا يفتأ يذكر وطنه ، فلم يعرف للنعيم طعماً الا يوم إن عفا عنه فرعون واستطاع العودة الى مصر ووثق بأنه سيقضي بها بقية حياته ثم يدفن في تربتها .

ولقد ذكرت في إحدى فقرات هذا الفصل كيف كان سينيه يشكو ألم النفي ، وقلت لعل شكواه أبلغ ما وصلنا من الأدب المصري المؤثر . غير أن المذكرات التي نشير اليها حوت شيئاً آخر هو ذكر العادات الحربية لمصر عند الأسرة الثانية عشرة وما كان يجرى في بلاط فرعون ، والمصائب التي تنزل بمن يحل عليه غضبه والشرف الذي يناله من يكسب رضاه .

قال سينيه يصف فرعون الذي نفاه ظلماً ، و يبين أسباب النفي لمن سألوه :

« ان فرعون باسل يعمل بسيفه عمل الشجاع الذي لا يباري . ترونه ينقض على البربر ويحمل على اللصوص بقلب ثابت . فهو أسد يضرب بمخالبه . انه لم يسلم قط سلاحه »

« يتناول ترسه ويثب ولا يكرر ضربته . ولا مفر للمقصود من رمحه . فترون البرابرة تفر منه كالأرانب ولو لم يوتر قوسه »

« ثم هو محبوب عرف كيف يكسب قلوب الناس . بلاده تحبه وتؤثره على نفسها وتسر به اكثر من سرورها بآلهها . لقد حكم الملك منذ كان في المهد . انه كائن وحيد وروح إلهية تسر الأرض بأن يحكمها »

يرى القارىء مما اقتطفناه أن عواطف المصريين بازاء ملوكهم كانت قريبة من العبادة التي يعبدون بها آلهتهم

وهنالك بردية غاية في النفاسة اشتراها المتحف البريطاني من مسيو ساليه سنة ١٨٣٩ تروي بدء القتال ضد الهكسوس ولكنها على أسف منا كثيرة النقص . تتضمن تبادل الرسل بين أبوبي ملك الرعاة وسوكنونرى الملك الوطني الحاكم بمصر العليا ، وبديهي أن نتيجة المسعى السياسي بهؤلاء الرسل لم يقبله أبوبي فبوشرت الحرب التي أقصى بها الهكسوس عن مصر

وتوجد أيضاً قصة أخرى فيها كثير من التعمل والمجانة ولكنها تكشف عن حقيقة تاريخية من عهد الاسرة العشرين . وعنوان القصة « كيف أخذ تحوتي مدينة يوبه » فما استعمله هذا القائد من ضروب الحيلة والغرائب يذكرنا بعلي بابا في حكايات الف ليلة وليلة ، وبجواد عوليس ، و باخلاص زبير

واذا خرجنا من دائرة التاريخ الى دائرة القصص والاساطير لما أعوزتنا المستندات ، وستكلم عنها في كلام خاص . غير أننا نشير هنا الى الأساطير التي أخذت كما يؤخذ التاريخ اعتماداً على ورودها في تواليف الاغريق فنقول أن أشهرها قصة رامبسينيت التي نقلها هيرودوت وتلقتها عنه كتب التاريخ . ولا نطيل هنا في أن بعض ما ينقله

هيرودوت لا يعد ثقة فقدطعن المؤرخون حتى فيأصل القصة المذكورة وفيمصريتها والمؤكد عندنا أن الكهنة كانوا يروونها في ثوب الحقيقة للاجانب وانها كانت من القصص الخرافية الشائعة بين عامة المصريين شيوع قصة رولان في رونسفو. وسان دونيس الذي قطع رأسه فسار يحمله تحت ابطه... الا أننا لا نغمط هيرودوت حقه فهو قصاص ماهر ولولاه ما وصل الينا شيء من مخترعات خيال المصريين في القصص فوقفنا على ما كان لعامتهم من الافكار والأحاديث

(٥) المؤلفات العلمية

قلنا فيما سبق أن البرديات التي وصلت الى أيدينا وبها بعض المسائل العلمية غاية في الندرة ولا شك في أن ذلك لقلة نسخها وزيادة الاقبال على الكتب الدينية ولهذا وصلنا من الكتب الثانية كثير

وأهم المستندات العلمية المصرية التي لا تزال موجودة كتاب الهندسة الذي تكلمنا عليه فيما سبق. ثم ان ما نعرفه من علم مصر انما عرفناه بتطبيقاته التي رأيناها ونتائجه العملية فاستقرينا مالم يقله لنا البردي

وليست البرديات الخاصة بالطب نادرة ولكنها لا تستحق أن توضع في صف المنتجات العلمية لانها خليط من مجموعات تذكرات طبية تافهة وصيغ سحرية فهي من أضعف ما ترك المصريون. وكان التشريح عندهم خرافياً كالطب كما يؤخذ من ترجمة فقرة من بردية ببراين تقول :

« للرأس اثنان وثلاثون عرقاً تؤدي بالنسمات الى الداخل وتنقلها الى جميع أجزاء الجسد. وفي الثدي عرقان يوديان الحرارة الى البنية... وللقفا عرقان وللأهداب مثلها، وللخياشيم آخران وللاذن اليمنى أيضاً عرقان تدخل منهما نسمة الحياة.... الخ »

(٦) الرسائل

شاع كثيراً تضمين المصريين للادب في الرسائل، فعندنا رسائل في كل نوع من الموضوعات كتبها والد الى ولده أو استاذ الى تلميذه أو كاتب الى كاتب زميله

ويلحق بمثل هذه الكتابات (التعاليم) المكتوبة منذ خمسة آلاف سنة كتبها امنمحعت الاول مؤسس الاسرة الثانية عشرة لابنه اوزورتزن الاول . وتعد التعاليم من المستندات التاريخية أيضاً لأبيه الملك يروى فيها أخبار القتال الذي ملأ السنين الأولى من حكمه ثم انتصاراته المتعاقبة على أعداءه مثل الليبيين والاسيويين

ولما طعن امنمحعت في السن أشرك معه في الحكم ولده اوزورتزن . وفي فراغه جعل يكتب تعاليمه أو يمليها فاشتهرت بمصر وصارت كتاباً يدرس حتى عهد الاسرة التاسعة عشرة . والى القارىء كيف لخص هذا الملك العظيم حكمه . قال :

« لقد عملت على أن الحزانى لا يبقون في الحزن وتم لي هذا . ولم يعد للوقائع الحزبية من وجود . وكان القوم قبلي يقاتلون كالثيران ويجهلون الماضي ولا يحققون رفاه الجاهل أو العالم . لقد عملت على حرث أراضي البلاد حتى أبو . وبثثت الافراح حتى أدهو. وأوجدت ثلاثة أنواع من الحبوب، فأنا إذن حبيب نبرات(إلهة الحبوب)»

« لقد استجاب النيل لصلواتي بالفيضان الذي عم جميع الحقول فلم تنل أحد على عهدي مجاعة ولم يقع تلف . مضى الناس على أوامري وكان كل ما أمرت به يدعو الى الحب . انني قلبت الأسد وأخذت التمساح . أخضعت واواي (يعني النوبيين) . وجثت بالماتسيون (يعني الليبين) عبدانا . وأجبرت الاسيويين على السير بجانبي كالأرانب . »

ووصل الينا من الاسرة الثانية عشرة أيضاً كتاب آخر عجيب ، حرره الكاتب الملكي دواور — مي — خردا الى ابنه يابي ليحمله على احتراف مهنة الكتابة وقد مرت بالقارىء نهايته، ذكرتها لدلالة القارىء على أهمية الأدب في وادي النيل. ومعظم الرسالة بعد ذلك فى وصف مختلف المهن وذكر متاعبها وقلة جدواها وتفضيل مهنة الادب عليها

وهناك رسالة ثالثة لا تقل في الاهمية ، وجه بها الكاتب آني الى ابنه خونس هوبتو . وهي عبارة عن مختصر في الاخلاق كامل ، لا في الخلق النفعي العملي كوصايا فتاحوتب بل في الخلق العالي المعنوي القريب من الاعتراف السلبي على نحو الموجود

بكتاب الموتى، بل تضمن أيضاً روحية ودعوة الى الاحسان لا توجدان الا في الانجيل وهذه بعض الامثلة :

« لا ثبات للناس على شيء ، هذا جواب من الموت للانسان . فانظر في أمر حياتك واذكر دائماً ماذا كانت . وضع امامك خطة للسير ولا تسلك الاّ المسلك العادل . سيأتيك رسول الموت لأخذك عنوة . انه قد تأهب ولا تثنيه عنك الأقوال . لا تحدث نفسك قائلاً ما زلت طفلاً بعد فالموت بعيد . انك لا تعرف متى تموت . اذا جاء الموت فلا يعرف ثدي المرضع لا ولا أحشاء الأم . سيان عنده الجنين ومن أسن وشاخ . لا تنس ما حملته امك من العناء والألم وقت طفوليتك . ولا تنس ما أحاطتك به من العناية فلا تدعها تشكوك ، واخش يوماً ترفع فيه يديها الى الآلهة شاكية داعية فتحل عليك الدعوة . . . احذر امرأة السبيل المجهولة في بلدها فلا تعاشرها ولا تتجر معها . انها كالماء العميق المجهول السواحل . قد ترسل اليك المرأة غاب زوجها عنها بكتاب وتناديك في كل يوم واذا لم تجد من يراها فقد تقف لك وتنصب الشرك وقد يتأتى أن تحدث عن هذا جريمة يعاقب عليها بالموت اذا انتشرت الاشاعة ولو لم يقض أحد منكما مأربه . »

« لا تأكل الخبز امام امرىء حاضر ينظر اليك الاّ اذا امتدت يدك اليه بكسرة . »

« لاين من خاشنك في الكلام . فالملاينة هي الدواء الذي يهدىء قلبه »

« لا تبح بفكرتك لانسان سيء اللسان ثرثاره والاّ أتحت له موضوع الثرثرة فنشر كلامك في الناس وجلب عليك عداءهم . ان سقطة الرجل موكلة بلسانه فاحذر أن تجلب على نفسك الدمار »

وقد رأينا حتى في أيام الاسرة العشرين بعد دور الفتوحات الخارجية تمجيد الكتاب لمهنة الأدب وذكر شرف صاحبها ومزاياها ولكنهم جعلوا لا يقارنونها بالمهن اليدوية بل بمهنة الجندية نفسها ، وكانت الجندية غاية في الشرف على عهد تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني .

قال كاتب لتلميذه : « كيف تقول أن ضابط المشاة أسعد حالاً من الكاتب ؟ تريث أدلك على حظ ضابط المشاة وأبين لك مقدار بؤسه . »

ثم أتى الكاتب على ذكر ما يعانيه الجندي من الجراح والمتاعب والسير في الصحاري والخبز والماء على كتفه كما يكون الحمار ....

كتب الكاتب أمنمحعت الى أخيه بنسبا : « اذا بلغتك هذه الرسالة فاحرص على أن تكون كاتباً تغلب كل أحد، ولا تتعرض لمتاعب واجبات الضباط في المركبات الحربية . » ووصف بعد ذلك تلك المتاعب وصفاً يزهد في الجندية .

ونأخذ من جميع ما مر أن وراء الترغيب في مهنة الأدب ما يشير الى الاعجاب بالمعرفة وبمركز الوظيفة الذي يبنى عليها

إذا اعوز مصر مثل (موليير) فلم يعوزها مثل تريسوتان . ولقد وجدنا فيما ترك الأدب المصري كثيراً من المعلومات المفيدة ولكننا لم نجد فيه الجمل الذاتية المبتكرة والأساليب الخالية من التكلف ولم نعثر على ما يثير النفس ويشعر بالجري على الفطرة . ولم يخل أدب مصر من دقة الملاحظة مع الميل الى الاستهزاء فروح الكاتب المصري كانت ذا ميل الى القواذع . وفي متحف تورينو والمتحف البريطاني برديات ملؤها الهجو وفيها صور هزلية لا تخلو من الغمز . وعندنا تمثال للكاتب المصري في متحف اللوفر جلس ثانياً رجليه وقد تجلت في صورته كل المميزات التي ذكرناها في أدب المصريين

(٧) المؤلفات الشعرية

في عهد رمسيس الثاني ميامون سيزوستريس الكبير كان ازدهار الشعر المصري . فان فرح الانتصارات حرك من شاعرية هذا الشعب الساكن المفكر الذي لم يعرف ما حرارة الشعر الموسيقي المعبر عن الوجدان

واسم الشاعر الفحل الفذ الذي وصل الينا من العهد الرمسيسي هو اسم بنتاؤور، وأهم عمله الملحمة المشهورة التي حكى بها انتصار قادش، والقصة التي تزعم أن رمسيس

وقع بالخديعة وسط سواد جيش العدو وتخلص بما فعل من الاعاجيب . خلد الشعراء أخبار هذه القصة وفعال رمسيس بها واقيمت الآثار لحفظ ذكراها .

وصلت الينا قصيدة بنتاؤور محفورة على معابد الاقصر والكرنك وابي سنبل أو مخطوطة على البردى في نسخة بالمتحف البريطاني . والقصيدة ملحمة تامة بالمعنى المعروف في الأدب وللآلهة دخل فيها وقد اختيرت لها المعاني السامية والتصورات البديعة وكتبت بلغة متينة مؤثرة فهي من خير ما تركت لنا مصر القديمة

وأهم نقطة في القصيدة ظهور الاله امون وامتداد ذراعيه القويتين على رمسيس واعانته على النصر والغلبة . وهذا التدخل قد قلل من مكانة البطل الاَّ انه بليغ الأثر في القصيدة برمتها

وسنأتي هنا على توسل رمسيس الى هذا الاله عند ما وجد نفسه فريداً وسط الخيتاس قال :

« أين أنت اذن يا أبي آمون . أينسى الوالد ولده . أفعلت أنا شيئاً بدونك . وهل مشيت أو وقفت الاَّ بأمرك . انني لم أعصك ولم أقصر في ملء دارك المقدسة بالاسرى . ولقد شيدت لك معبداً يدوم ملايين السنين . ووقفت أموالي على خزائنك . وقدمت لك الدنيا بأسرها لفلاحة أملاكك . البؤس والشقاء لمن عارض قضاءك والسعد والهناءة لمن عرفك وعرف أن عملك يصدر عن قلب ممتلىء بالحب . انني أدعوك يا أبي آمون وانا وسط شعوب عديدة أجهلها وقد تركني جنودي ولم يلتفت اليَّ أحد من فرساني واقد ناديتهم فلم يسمع أحد منهم صوتي . انني أعتقد بأن آمون خير لي من الف الف من الجنود ومن الاخوة ومن الاولاد ولو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد . ان عمل الناس لا يعد شيئاً فآمون وعمله أعظم وأبقى . لقد فعلت ما فعلت بأمر منك ولم أعد نصحك ورددت اسمك ومجدك في أقصى الارض . »

هذا الدعاء فصيح يسر الانسان أن يقرأه ولو انه لم يجركه على اسان انسان أحاط به الاعداء واشتغل بأمر نفسه وخلاصه حذر الهلاك . الاَّ ان المبالغة من الشاعر مغفورة بجانب ما للدعاء من الفيمة الأدبية .

وأهم ما وجد من الشعر الموسيقي بعد هذه القصيدة نشيد النيل الذي أتينا على فقرات منه فيما سبق وذكرنا خلوها من الروح على وجه التقريب . ونقول هنا بالاجمال انه لا يطلب في الأدب المصري القديم شيء من السيال الشعري القوي كما في سفر أيوب أو مزامير داوود أو مثل ما في شعر دانتي وملتون ، ولا غرابة فتحت نور مصر وسكونها ورتيبة العيش فيها إذ ينظم الفيضان لا توجد ثورة النفس ولا الشهوات ولا ذلك الحزن الذي يخلق كبار الشعراء .

ان الموت وحده هو الذي شغل تصورات المصريين فوجدوا وسيلة لتعريفه وتعيينه كما تعين الحياة . فلم يعرف بمصر الشعر الموسيقي ولم تغني بنات الشعر الا إذا بكت ، فأجمل الأغنية هو اذن في الدموع .

(٨) القصص والروايات

منذ اربعين سنة تقريباً ما كان يخطر بالبال أن مصر أنشأت مؤلفات بناؤها على التصور البحت أو انها اكثرت من وضع الحكايات ، فما جاءت سنة ١٨٥٢ وحل مسيو روجيه رموز بردية اشتريت في ايطاليا حتى اتضح ان محتوياتها ليست الا حكاية غرامية قد خلطت بأعاجيب مما يشبه الموجود في كتاب الف ليلة وليلة . ثم تبع هذا اكتشاف كثير من الحكايات وتأكد اليوم أن بناة الاهرام الذين لم تفارقهم فكرة الموت لم يمتهنوا القصص الجميلة ولم يقصروا في وضع الحكايات الغريبة الوقائع المنسقة الفصول

ولقد قلنا أن علم القوم بالحب لم يكن عاطفة شعرية ولا هو من قبيل التدله والذهاب حتى الى الاجرام . فهو عندهم لم يفارق الزواج أو التمتع الجنسي . أما تسامح العادات فكان على أتمه وقد دللنا عليه بحكاية ابنة كاهن بوباسطة إذ سامها ابن الملك ساعة من ساعات القرب مقابل عشر قطع من الذهب فواعدته منزلها وهناك خالط الحب الدم وامتزج صوت القبل بحشرجة الصدور فكان في هذا خير تصوير لما تجر اليه الشهوة في النهاية . ومن العجب أن المؤلف للحكاية لم يلبث أن استشعر ثقل ما خطه قلمه فجعل بطل روايته يفيق بريئاً من كابوس الحلم الدموي ويتدبر

عمق الهوة التي كاد يرديه فيها نزقه ثم رد الكتاب السحري الذي كان عنده وأوشك أن يقتاده الى الضلال ....

خلاصة الرواية التي نحن بصددها ان الامير ساتني تبع تبو بواي الحسناء الى منزلها فاسمع اذن الدقة في صفة الردهة والمائدة والأعطار فان ابنة الكاهن التي تقول بعفافها، نهاية في العلم بفن الاجتذاب الذي لا تتقنه الاَّ المقربات عند الملوك. قال مؤلف الرواية:

« تبع ساتني تبو بواي الى الطبقة العليا من المنزل وكانت عليه أستار مموهة باللازورد والمينا الزرقاء والخضراء وكان بالردهة عدة سرر عليها أقمشة الكتان الملكي وهناك عدة كؤوس من الذهب الخالص مرفوعة على مناضد. فصب النبيذ في كأس منها وقدم الى ساتني وقالت له تبو بواي اذا شئت فاشرب. فقال لها ليس في هذا ما اريد. ثم وضعا الاناء على النار وجاءآ بالعطر كما يجري في الولائم الملكية وجعل ساتني يلهو مع تبو بواي ولكنه لم ير جسمها »

يبتدىء هناك فصل الاغواء وفيه يصف الكاتب أسلحة النساء التي يستعملنها للعبث بالعقول وجر الرجال حتى الى الاجرام. وعند ما تريد أن تطلب الى ساتني اكبر مطلب، تتركه لحظة وتعود اليـه عارية زيادة في ترغيبه ومبالغة في اغراءه. وبعد أن يفرغ من الطعام، وهو يتململ من طول الجلوس اليه، يقول لها هلم الى ما اجتمعنا من أجله فتقول له « ان جميع ما بالمنزل لك غير انني تقية واست بيغي فاذا جد بك الحرص على مرامك مني فاكتب لي هبة جميع ما تملك من المال والعقار. فيقول عليَّ بالكاتب يحرر العطية. فيحاء بالكاتب فيملي عليه ساتني كتاباً بالقسم وآخر بالنزول لتبو بواي عن جميع ما يملك من مال وعقار. وبعد ساعه يحضر الى ساتني من يقول له ان اولادك بالباب فيقول اصعدوهم اليّ. فتتخفف تبو بواي وتبدو له في غلائل نفافة من الكتان فيستشعر الرغبة مرة اخرى فتعيد عليه القول بأنها تقية وليست بيغي وتطلب عهداً بأن لا ينازع أولاده أولادها في المال والعقار الذي كتب لها منه فيعطيها العهد ويسألها اناالته ما جاء من أجله فتكرر عليه الصيغ

المارة وتطلب اليـه قتل اولاده حتى لا يكون منهم نزاع لأولادها فيقول لتكن الجريمة التي أردت أن تكون . فتقتل الأولاد امامه وتلقي بهم من النافذة الى الكلاب والسنانير فتنهش في لحومهم وأبوهم يسمع وهو يعاطي تبو بواي الخمر . ثم يسألها الوصل قائلاً قد تم لك جميع ما طلبت فتقول له ادخل الى هذه الغرفة فيدخل وينام على سرير من العاج والابنوس وتنام تبو بواي على حافة السرير . »

يرى مما تقدم أن حسان المصريات لم يكن ينقصهن شيء من التدلل والتخنى ومعرفة الاجتذاب ومطاولة الرجال والغلو في طلب المصلحة والقسوة في تنفيذ الاغراض وهذا ما جعل الكاتب آني يحذر ابنه النساء ويقول له :

« لا تتبع النساء ولا تدع على قلبك لهن من سلطان ، فالرجال يقترفون جميع الجرائم في سبيلهن » .

ما ابدع ما صوره كاتب رواية ساتني وما أقربه الى الحق والواقع فكأنه نسخة من الروايات التي توضع على المذهب الحقيقي اليوم . رأى ابن الملك تبو بواي الخادعة المراوغة فأحبها وبعث وراءها بمن يعرض عشر قطع من الذهب فلم ترفض ولم تنظر الى ضئالة المبلغ بل قبلت وقالت ان الفريسة ستجيء الى حيث الفخ وواعدته بيتها وهي على يقين من حضوره ومن نيلها كل ما تريده . ثم نالت كل ما اشتهته بلا عنف ولا تذمر منه واستلت منه حتى بعد كنوزه مهج أولاده ، يسمع فعل نيوب الكلاب باشلاءهم وشفته على الكأس ...

ان المنظر رهيب ولكن تصوره نهاية في الاتقان ومن الغاية في الفن أن نلمح حسن المرأة وجمالها في طول السياق بالرغم من مسترذل قسوتها فما دانى هذا في العصور الأخيرة إلا دليلة . الاَّ أن اليهودية ترددت ثلاث مرات قبل جريمتها أما المصرية فمشت الى غرضها مصرة منبي الفضاء .

وليس سائر الروايات المصرية ما يماثل تبو بواي ، وتأتي من بعدها رواية الاخوين . ويظهر انها رواية من قصة يوسف مع امرأة بوطيفار ، ولكن النص العبري يتفوق على الرواية المصرية .

وقد جمعت الروايات المصرية التي عرفت الى الآن في مجلد واحد وما اختصصنا رواية تبو بواي بالذكر الا لأنها أربت على سائرها قيمة وفناً واستحقت مكاناً بين الروايات الخالدة لدقة التصوير والقرب من الحق والواقع .



الفصل التاسع

فن العمارة المصرية

(١) الاوصاف العمومية لفن العمارة المصرية

منتجات العمارة المصرية اكبر وأبقى ما خلفه الاقدمون في الدنيا . والضخامة والرزانة أول ما يلفت نظر السائح الذي يرى الاهرامات أو يشاهد واجهات المعابد أو أبا الهول أو تماثيل الملوك العظيمة ، أو يسير بين صفوف العمد التي كانت زينة هياكل المصريين .

وعمارة مصر من هذين الوجهين اعراب صادق عن روح الشعب الذي انشأها. ولا عجب ، فقد كان هم المصريين كل خالد أبدي من الأشياء . فالحياة الارضية أقل أهمية من الخلود الآجل ، والجسم أقل أهمية من الروح الباقية . فالقبر أبقى من المنزل

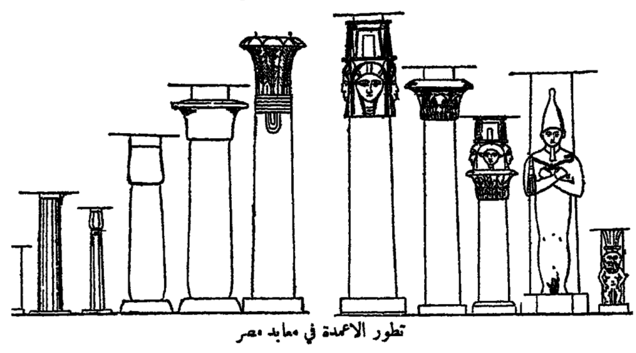
قال ديودور الصقلي : « سمي المصريون منازل الاحياء باسم الخان لقلة العيش فيها وقصره . أما القبور فسموها المساكن الابدية . لهذا قللوا من زينة المساكن ولم يدخروا وسعاً في تزيين القبور »

عمارة القبور اذن أهم العمارات في وادي النيل ومنها بقيت انا الآثار العديدة التي بقيت على القرون . فكان منها الاهرامات ، تلك القبور العظيمة التي قال عنها ديودور « انها بنيت من الصخر الصلد المستصعب القطع الذي يبقى على الزمان »

قال كاتب عربي من كتاب القرن الثالث عشر : « تخشى الاشياء كلها الزمن ويخشى الزمن الاهرامات »

أما الشكل الهرمي الذي يمر بالذهن كلما ذكرت آثار مصر فقد كان اول شكل اساسي أتت به عبقرية مصر ثم أدخلته في كل مكان بخطوطه الساذجة وقواعده الراسية وارتفاعه الوسط اذا قوبل بالقاعدة ، وميلان السطوح . لم ينس الباني

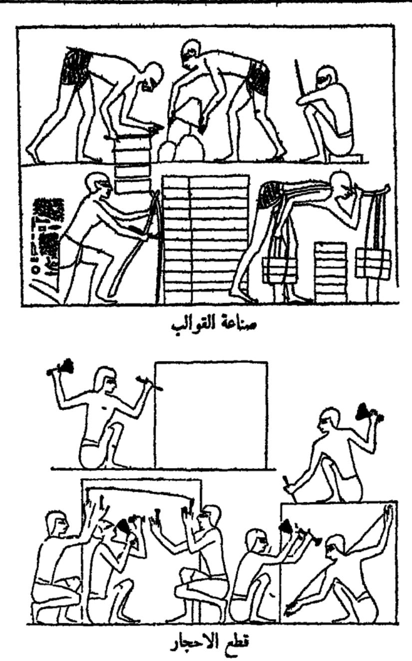
المصري ذاك الشكل قط حتى في أبان تشييد طيبـة العظيمة ووقت أن استن التصور وافتن في الاكثار من العمد وتصفيف الـكثير من أبي الهول واقامة المسلات وتغطية الحوائط بالنقش الهيراطيقي ونصب النصب من الغرانيت واتخاذ التماثيل من الذهب والعاج وتحلية رؤوس الاعمدة وتيجانها بقطع الحجر المنحوت على أشكال



تطور الاعمدة في معابد مصر

الزهر وورق الشجر وابتناء مداخل المعابد من سطوح مائلة ليس بها فتحات ولا نقوش من الخارج . لم ينس الباني مطمح اسلافه ولم يهمل جلال الموضوع ولم ينحرف عن الاساليب القائمة على الخطوط الواضحة وتوسعة القاعدة ليرزن ويثبت البناء كما في الاهرامات . لا بل لوحظ أيضاً في أعلى المسلات أو المذابح تقليد شكل الاهرامات ، ففكرتها اذن لم تفارق المصري حتى في أخص ساعات استقلاله وطلبه للزينة والزخرفة

وترجع صلابة المنشآت المصرية في الاغلب الى جسامتها وزيادة امتدادها في العرض على الارتفاع ، ثم الى طبيعة المواد التي استعملت في البناء . كان الخشب وكانت قوالب الحمرة (اللبنات) تستعمل في مصر ولـكن الآثار المهمة انما كانت تبنى بالحجر الطفلي العجيب المتخذ من سلسلتي جبال العرب وليبيا ، وبالغرانيت المجلوب من الجنوب وبالجبس وما اليه من المعادن الصلبة القوية على المقاومة فتقطع كتلاً عظيمة فلا تتلف ولا تتفتت في جفاف اقليم حفظها حتى اليوم



صناعة القوالب

قطع الاحجار

وهناك سبب ثالث لبقاء العمائر المصرية هي الموازنة التامة فيها ، ولا غرابة فهي مؤلفة من طبقة تغطية أفقية ترتكز على حوامل رأسية ، فتقل ما فوق يزيد في متانة الحائط أو الحامل العمودي بالضغط عليه من أعلى إلى أسفل وليس في البناء ما يؤدي الى التفكك أو التلف أو الخراب ، فلا ينهدم الا اذا أصابه زلزال عظيم أو ألح عليه الناس بجهودهم لهدمه . ثم ان ميلان السطوح الخارجية يمد في القاعدة فيزيد في طمأنينة البناء ويوحي الى المشاهد بفكرة الابدية التي تخالج كل من نظر في آثار مصر. ولم تعرف البلاد الخطوط الخفيفة والمنحنيات والمنائر وما ارتفع في الجو عرضة للصواعق والرياح ، قبل الاغارة العربية فلم يكن المصريون يتخذون العقود الا نادراً وفي الابنية التي لا يرون لها أهمية البقاء كمنازل الافراد والمخازن ،

على أنها كانت عقوداً غير حقيقية فهي مؤلفة من كتل قطعت منحنية وبقيت اتصالاتها أفقية

لم تطلب الصلابة الفائقة كما بينا في منشآت فن العمارة كلها والا لبقيت الدور والقصور المصرية الى يومنا هذا والواقع انه لم يصل الى زمننا منها شيء . فالمصريون إذن لم يرموا الى الدوام الا في بناء المعابد والمقابر . فالاولى لانها بمثابة صلاة من الصخر وكصيغ سحرية وأعمال خالدة دالة على العبادة يدوم بدوامها رضى الآله الذي أقيمت له . والاخرى لأنها تحمي المومياء وهي تماثيل الأموات ، ولانها مساكن الارواح وملجأها على الأرض، فنزيلها الصامت لا يدركه الدمار ما بقيت بقاياه مصونة في عمق الجدث . أما منازل الأحياء فغير عظيم ولا ذو شأن أن تكون ضخمة خالدة ولهذا قلت العناية بها .

وأرتنا الصور المنقوشة أمثلة من مساكن الأحياء فاذا هي في بعضها بديعة الشكل فيها أبهاء تحدها العمد الصغيرة المتخذة من الخشب الرفيع تتفرع في أعلاها كأنها سوق النباتات ، وفيها السقوف المغطاة المطلية والحوائط المحلاة باللازورد والاطناف المظللة بالخيام والأفنية المزينة بأصص الزهر المرصوفة بالحجر الزاهي وفيها أيضاً نوافير المياه . كذلك كانت الحال ببيوت السراة . أما بيوت الفقراء فنهاية في الفقر ، قوامها الحوائط الاربع من الطين وخزانة او اثنتان لوضع المؤونة وفناء تنام فيه الأسرة ولا فتحة في السقف لمرور الدخان فينضج الطعام خارج المسكن على نحو ما يعيش الفلاح الآن في الوجه القبلي

هذا اجمال ما يقال في فن العمارة المدنية ، روعيت فيه طبيعة حاج الاقاليم الحار . أما العمارة العسكرية فلا تقل شهرة في مصر عن العمارة العادية ولكن المصريين لم يخرجوا بها عن الصفات العامة التي توجد في انشاء المتاريس وبناء الحصون بكل زمان وكل بلاد غير ان الميل في ابتناء الحوائط المصرية،وقد طبعوا عليه منذ بناء الاهرامات جعل وضع السلم للصعود مستصعباً اذا هاجم الخصم معاقلهم.وأقام العسكر المصري الابراج وتوجها بالمدببات وأحاط الحوائط الأمامية للحصون بالحفر وقلل من الفتحات وباعد بينها وجعل الأبواب تفتح على ممرات ذات منعرجات كثيرة ملأها بالمفاجئات للعدو

الذي يسير فيها . واقتن جنـد مصر في بناء الاستحكامات ، ولكنها لم تكن نهاية في المنعة ، فأتى عليها المغيرون في أبيدوس (العرابة المدفونة) الحصينة البقيـة الباقية من دوارس فن العمارة العسكرية . ويقال عن هذه العمارة أنها كالعمارة المدنية لا تمثل خاصة العبقرية المصرية ، تلك العبقرية التي لا تتجلى الاَّ في عمارة المعابد والقبور. وعلى هذا فسيكون كلامنا مقصوراً فيما يلي على ذكر مجمل أوصاف المعابد والمقابر على عهد الامبراطوريات القديمة والوسطى والحديثـة . وندل على التغييرات التي دخلت الفن بالرغم مما يرى من ثباته على توالي القرون

(٢) العمارة في الامبراطورية القديمة

لم يبق بمصر الا معبد واحد من أثار الامبراطورية القديمة ، هو ما يسمونه معبد أبي الهول ، بسبب قربه من ذلك التمثال العميق الأسرار

اكتشف ماريت هذا المعبد وكشف الرمال عن بعضه وبقي مقتنعاً انه انما أقيم لعبادة أبي الهول ، وانه إذا أجيد الحفر بينه وبين التمثال فقد يتم العثور على صلة تصل تمثال الإآه المذكور بمعبده

ولا شبهة في أن المعبـد أقدم أثار العالم ، ثم انه بسذاجة عمارته يعد صلة الوصل بين المنشآت الفطرية الاولية وفن العمارة الحقيقية . ويرد قدماء المصريين أصل المعبد الى ما قبل الامبراطورية القديمة كما يؤخذ من كتابة من عهد كيوبس تقول ان المعبد اكتشف في عهد الملك المذكور وقت حفر الأرض هناك . فهو اذن قبـل كيوبس بزمن عريق في القـدم وتعزى اقامته هو وتمثال أبي الهول الى شيسوهور والاجداد الأوائل الذين علمهم الآلهة فنشروا الحضارة في مصر قبل عهد مينا بكثير

ولم تنظف الحوائط الخارجية لهذا المعبد السري الا من الداخل ولا يزال يرتكز في كل ناحية من نواحيه على الرمل الذي طمره من أجيال غاية في القـدم . والحوائط عبارة عن كتل عظيمة من الصخر الطفلي ، وبداخل المعبد قواعد مربعـة وأعمدة تحمل السقف ولا تزال تحمل عدة كتل موضوعة وضعاً أفقياً ، وهي والاعمدة من الغرانيت . وأسلوب المعبد نهاية في السذاجة الا أن جلاله وضخامة ما استخدم فيه من المواد يؤثر في المتشاهد وبخاصة اذا التفت الذهن الى طعونه في القدم

واذا دققنا النظر الى هذا المعبد الأولي وجدنا فيه جميع عناصر فن العمارة الدينية التي تهذبت وارتقت فيما بعـد أيام الامبراطورية الحديثة . فالحوامل الثقيلة المربعة صارت الاعمدة الجميلة ولكنها بقيت تحمل الاربطة المسطحة أفقية الوضع ، وبقيت الاروقة ولها شكل التاء الافرنكية T وتحفر عميقة فلا يصل اليهـا النور كما ترى في معبد أبي الهول

وبعد المعبد وتمثال أبي الهول تأتي الاهرامات المدرجة في سقارة فهي من أقدم آثار مصر ، لا تعد بجانبها اهرامات الجيزة الا فتية . وقبل أن نصف الاهرامات وهي أهم ما بني على عهد الامبراطورية القـديمة نبين للقارىء ماذا كانت عليه حال عمارة المقابر لانها تتعلق بها

كان شكل القبر على عهد الأسرات الاولى ما يقال له الآن (المصطبة) . نعني أثراً بشكل اهرام مقطوعة قاعدتها مستطيلة وتختلف أطوالهـا وأعماقها ، ولكن علوها لا يتجاوز ستة أو ثمانية من الامتار . ووجوهها الاربعة مسطحة ليس بها أي زينة ولا أي فتحة ، اللهم الا الباب المواجه للشرق . وتوضع المصطبة وضعاً دقيقاً من حيث التوجيه فكل واجهة منها تقابل نقطة من النقط الاربع الاصلية ومحورها الكبير في اتجاه الشمال والجنوب

على ضفة النيل اليسرى مقابل رأس الدلتا كانت تمتد جبانة ممفيس وبها قبور الامبراطورية القديمة ، وكانت أوسع مقبرة في العالم لان طولها عدة أميال ولا يحدها من الغرب الا نهاية سفوح جبال ليبيا . وحول الاهرامات الكبيرة مساكن موميا الملوك ، وتكون القبور ما بين كبير وصغير تبعاً لحال الميت ومقدار ثروته . وقد جعلت كلها في صفوف منظمة ، ونصل بين صفوفها بممرات كشوارع مدن الاحياء . وقد كشف الكاشفون عن مئات من هذه القبور في القرن الماضي (التاسع عشر) . ويرى الرائي من أعلى الاهرامات أسطراً بارزة في الرمل لا بد أنها سطور القبور التي لا تزال تحت الرمال .

كان السكون يسود مدينة الاموات الا في الاعياد الكبيرة الموتى اذ تكتظ

بالواردين من أقارب الراقدين في صعيدها يحملون القرابين، وتدوي في أرجاءها مواعظ الكهنة وأناشيد الموتى وأصوات الشكوى والنوادب وصيحات الضحايا المجلوبة للتضحية ، فاذا انتهى العيد عادت الى ما هي عليه من سكوت الصحراء والموت

ولا يستوقف هـذا من الفكر مثل ما يستوقفه السر الذي أخفته تلك المقابر المحكمة الغلق وما حوته من التماثيل والنقوش والكتابات واحتفظت به العديد من الاجيال ، فكانت في قوتها كالقلاع وفي ضنها بما فيها كالخزائن الحديدية

يشمل القبر أو المصطبة من الداخل ثلاثة أجزاء رئيسية ، الهيكل أو الجذع والممر أو السرداب والكهف . فالهيكل وحده يفتح للاحياء وهو أول ما يدخله المرء بعد عتبة القبر وقد يجتمع فيـه أقارب الميت عند الاحتفال بذكراه لتلاوة صلاه الموتى ووضع القرابين والمؤن المخصصة (لصنو) الميت فالهيكل اذن قاعة استقبال الصنو المذكور ومعنـاه الوسيط بين الجسم والروح وهو الساكن الحقيقي للقبر ويبقى به مادامت الموميا باقية لم يلحق بها الدمار . وفي الهيكل شيئان مهمان ، الشاهد ومائدة القرابين . فالشاهد مثبت فيما يشبه الوجار مقابل المدخل وعليـه اسم الميت وأعماله وصفاته وترجمة حاله ، ومائدة القرابين عبارة عن كتلة من الغرانيت أو نحوه حفرت في سطحها الاعلى عيون مقسمة لوضع طعام (الصنو) المذكور وقد يقام أحياناً على يمين هذه المائدة وعلى يسارها مسلتان صغيرتان

وكانت حوائط الهيكل على عهد الأسرات الاولى خالية من أي زينة ثم أخذوا في تغطيتها بالنقوش التي تمثل فصول الحياة الخصوصية . ومن هذه النقوش علمنا تفصيلات حضارة القوم ورأينا أنها كانت راقية على بعد الزمن وايغاله في القدم

ولهـذه النقوش معنى خرافياً اعتقد به المصريون فقالوا ان تمثيل الميت بالنقش ذاهباً جائياً آكلاً عاملاً من شأنه أن يعينه على هذه الاعمال ومواصلتها فيمدون بذلك في وجوده لانه لما صار ظلاً بعد الوفاة فانه يكتفي بالظل من الخدم والظل من الطعام والاثاث والآلات . فالنقش اذن بمثابة ظلال للمنقوشات . ثم لما كان الصنو لا يبقى بالقبر الا ما بقيت الموميا به فقد اتخذوا كل حيطة لصيانة هذه الموميا . واذا

حدث وفني الجسم فان تماثيل الميت تقوم مقام مومياه وتبقى الصنو بالقبر ولهذا وضعت التماثيل بالقبور وكان مقرها (السراديب) ولا اتصال بين هذه الممرات والخارج اللهم الا من ثقب صغير يثقب أحياناً مما يلي الهيكل ولا يكاد يدخل اليد ومن هذا الثقب يسمع الصنو صلوات الأقارب او الكهنة الذين يضعون أفواههم عليه ويهمسون مصلين . ولم توضع النقوش مدة الامبراطورية القديمة ولا الكتابات على حوافي السراديب والكهوف فلا نراها الا اذا غادرنا الهيكل وتقدمنا الى الأمام

والجزء الثالث وهو أهم جزء في المصطبة يدعى الكهف وبه النعش من الغرانيت الوردي أو الحجر الازرق أو الاسود الصواني ومن داخل النعش أو الناووس الموميا

ويحفر الكهف في أقصى القبر وينقر في الصخر القائم عليه القبر ويجعل دائماً في المحور العمودي للاثر بهيئة بئر مربعة فاذا أنزل الجسم ووضع في مكانه ملء فم البئر بكتل الحجر وبالمدر والرمل المبلل بالماء فصار شبيهاً بالاسمنت المسلح صلابة ثم يملأ كل تجويف في القبر ونخفي فتحته العليا إخفاء متقناً

ولم نجد خارج الناووس في مقابر الامبراطورية القديمة شيئاً اللهم الا بعض ما يشبه الوسائد من الصخر يسند عليه الصنو رأسه التعب وبعض عظام لا بد أنها من أرباع العجول المقدمة قرباناً وقت الدفن

ولم نكن المقابر كلها كما صورناها هنا بسيطة ساذجة فان أعاظم الناس كانوا يزينون قبورهم فيفتح باب القبر وراء ما يشبه الرحبة مقامة على عمودين أو أربعة . ويتخذ عوضاً عن الهيكل الواحد عدة من الهيا كل مزينة بالنقوش والصور البارزة ويجعل السرداب من عدة ممرات ويعمق الكهف ويزاد الافتنان في اخفاءه ويتخير الناووس بعناية . ومن القبور الجميلة الخاصة التي وجدت أخيراً من عهد الامبراطورية القديمة قبر تي وقبر فتاحوتب ، ففيهما نقوش من روائع اعمال الامبراطورية المذكورة

غير ان أتم المصاطب وا كملها لا يزاحم قبور الملوك نعني تلك الاهرامات العظيمة التي أنافت من عل على آلاف القبور الصغيرة المنثورة بمدينة الأموات كما أناف الفراعنة على رعاياهم من قبل في الحياة

لا بد في اعتزام بناء أمثال هذه الآثار الرائعة من السيطرة على مئآت الالوف من الأيدي البشرية لأن قوة الأذرع تعينها الأدوات الأولية الساذجة هي التي كدست بنظام وانسجام ملايين الأمتار المكعبة من الحجر فكان منها اهرام كيو بس الكبيرة إذ عمل فيها مئة الف من العمال يغيرون كل ثلاثة أشهر مرة ما زاد على عشرين سنة

لما ابتدأ فرعون في بناء قبره عبأ له إقليماً برمته لحشد سكانه وصناعه وعماله وزراعه وكل ذي حرفة فيه تحت أوامر المعماريين والمهندسين الملكيين وعمل الشيوخ والفتيان أيضاً في أعمال قليلة التعب فلما أعيي هذا الجيش العمل تحت الشمس المحرقة وعنت المديرين سرح الى بلده وجمع غيره من إقليم آخر . وجميع ما أقيم بمصر من إهرامات ومعابد وجسور وأقنية انما أقيم بهذه الكيفية ثم استخدموا بعد ذلك أسارى الحروب والرقيق من العبرانيين وما كانت هجرة موسى وشعبه الا بسبب الاسراف في استخدامه وسوء معاملته

ولم يكن في هذا التسخير من أجر يعطى وانما كان يكتفى باطعام العملة . حكى هيرودوت وديودور ان نفقات تلك التغذية كتبت على إحدى واجهات الاهرام الكبيرة فبلغت في أثمان الخضر واللفت اكثر من ١٦٠٠ تالان أو ثمانيـة ملايين و٨٠٠ الف من الفرنكات

كان الملك إذا رقى العرش بدأ في ابتناء اهرامه فمشي العمل شيئًا فشيئًا باضافة طبقات خارجية الى بعضها بعضاً كما ترى في تكوين الشجر فالاهرامات العديدة الطبقات تدل على طول عهد بانيها فقد دام حكم كيو بس باني الاهرام الكبيرة في علوّ ١٣٧ متراً و ٢٢٧ متراً في ضلع القاعدة ، (٥٦) سنة ، ولكن لم تبق إهرامه على العلوّ الذي أراد . فقد سقط أعلى القمة كما سقط الطلاء الخارجي ولكنه بما بقي و بالاهرامين اللتين لخفرن وميكرينوس محل اعجاب كل مشاهد

لسنا نجد في مشاهدة الاهرامات ما نجده أمام معبد من معابد اليونان . ولكن العقل يرى في الشيء معناه وما يراه العقل في الاهرام لا يعد في باب الجمال أو القبح وانما هو أمر آخر رائع . انه الجهد البالغ الذي أنتجها والقرون العديدة التي تغلبت

عليها ومضت وهي باقيـة . والكبرياء التي تستعلى به على من ينظر اليها . ووحدتها عند رمال الصحراء والغاية التي أقيمت من أجلها . كل هذه تبعث افكاراً مختلفة في النفس وتحيي فيها الكثير من التأثيرات . أما من حيث الحسن فليس في شكل الاهرام ما يجذب ، على أن الفراعنة الذين أقاموها لم يطلبوا أن تكون عملاً من أعمال الفن بل أرادوا أن تكون مخبأ لمومياهم وملجأ لا يتناوله الدمار

وليست اهرامات الملوك إلا كمصاطب الافراد مكبرة معظمة ، ففي اعماقها تلك السراديب وتلك الكهوف ولم يحذف في الاهرامات الا الهيكل ، لان الاهرام لا تترك لها فتحة والا فقد يدخل منها العدو كما دخل الصديق ويدنس الجثة ولهذا جعـل الهيكل خارج الاهرام على مسافة قريبة منـه كما استدللنا من الخرائب التي وجدناها .

وكانت الاهرامات مغطاة كلها بطبقة تحجب مدرجاتها وجوانبها وتبدي أركانها المسنونة وتخفي الباب الذي يؤدي الى الكهف . ولم يعتبر المصريون هـذه الحيطة كافية فالممر الذي فتح أخيراً في الاهرام الكبيرة بواجهتها الشماليـة ينزل مستقيما ناحية الارض ويؤدي الى غرفة كالمجاز سطحها أوطأ من سطح النيل فتدخلها مياهه (اذا صدقنا ما زعمه هيرودوت) فاذا خاطر مخاطر وتهجم على موميا الملك غرق في الغرفة المذكورة . . .

والذي نراه نحن أن الممر الحقيقي يؤدي الى العقد وكانت فتحته غاية في الاختفاء وقد سد بكتلة من الغرانيت الصـلد هائلة ونهاية في دقة الاحكام فلم يستطع أحد زحزحتها أو خرقها فجرى الحفر في موضع آخر لتجنبها ولكن كل هذه الحيطة وكل ما اتخذه الاقدمون لتضليل الطامع في التهجم على الموميا لم يفد إلا ريثما أغار العرب على مصر فوصل حب الاستطلاع وبعـد النظر أو قل الشراهة أيضاً الى ناووس كيوبس فاذا هو ناووس عظيم من الغرانيت الوردي له غطاء ثقيل من نفس المادة ولا يزال في موضعه الى الساعة بالاهرام . وموضع الكهف في قاب الاثر وقد خشي عليه البناة أن يتهدم تحت ثقل القواعد العليا فاتخـذوا فوقه خمس غرف للتحميل

مرتب بعضها فوق بعض ، ولأعلاها سقف من كتلتين مائلتين تقسم الضغط وتلقيه على ناحيتي الخط المستقيم .

هـذه الغرف وهذه الممرات الداخلية الخاليـة المحصورة بين ضغط ملايين الكيلوغرامات ولم تتحلحل قيـد أظفور عن مواضعها من يوم وجدت الى اليوم هي المعجزة في بناء الاهرامات وهي المجلى لعبقرية المهندسين المصريين منذستة آلاف من السنين لأن الذي أتموه في هذا الشأن ولا معرفة يومئذ بالمعلومات العلمية التامة ولا أدوات يصح أن يطلق عليها هـذا الاسم لا يمكن أن نعيده اليوم مع ما عندنا من المعدات والآلات

واهرامات الجيزة وان كانت أعظم الاهرامات الا أن هنـاك مئات من أحجام مختلفة على الضفة اليسرى للنيل تضمها جبانة ممفيس لان هـذا النوع من القبور لم يكن مقصوراً على الملوك فحسب بل يشركهم فيـه الاغنياء باهرامات صغيرة مبنيـة باللبنات النيئة .

الاهرام والمصطبة هما مثال القبر في عهد الامبراطورية القديمة وكل ما يتعلق بهما سابق في وجوده للاسرة الثانية عشرة ومن النقوش التي وجدت في هذه القبور ومما عليها من الكتابات استطعنا الالمام بتفصيلات أقدم الحضارات البشرية

ولم يرتق فن ابتناء الاهرامات زيادة على ما وصل اليه في الاهرامات الكبيرة بل انحط بعد ذلك تدريجاً وقلت العناية بالنقش ونظام وضع الكتل وصغر حجمها ولكن فن العمارة بالاجمال أخذ في التحسن وتعدد الاشكال الا أنه خلا من قصد الدوام وطلب الاستمرار في البنايات

ان الامبراطورية القديمة هي وحدها في نظرنا التي خلفت أبنية خالدة لضخامتها ومتانتها ولم تعرف الاعمدة . وأعظم ما خلفت لا يخرج عن معبد أبي الهول والاهرام الكبيرة وليسا في مجموعهما إلاَّ خطوطاً وسطوحاً رأسية وأفقية ومائلة ولكنها تنبعث منها العظمة .

أي حلم كبير كان في نفوس رجال تلك الامبراطورية اذ رفعوا الغرانيت الصلبة

واقاموها خطوطاً واضحة تمثــل الانفة والشمم !! انهم أدركوا قصر الحياة وغرور الافراح فهاموا بالأشياء الخالدة وفضلوا الموت في القدر على الحياة لان الحياة العوبة الزمن والموت فواز عليه . انهم لما أجلسوا أبا الهول على عتبة الصحراء وضعوا في عينيه وعلى شفتيه تبسم الامل وحلاوة التسليم . فما أعظم صبر اولئك القوم .

لقد ظنوا انهم عرفوا سر المستقبل . ذاك السر الذي لا نزال نبحث نحن عنه الى اليوم . وكلما أعيانا البحث جئنا الى أبي الهول الحالم فجلسنا اليه وهو يبتسم من غرور الغابرين واكدار الحاضرين الاّ انه لايستهزىء بأحد ، فملء عينه التفكير وقد أثبت النظرة على الافق فكأنه يبحث في الغيوب عن لغز الأبد .

(٣) العمارة في الامبراطورية الوسطى

قام اوائل ملوك الامبراطورية الوسطى منذ ثلاثة آلاف من السنين قبل المسيح ولم تترك هذه الامبراطورية إلاّ أقل مما تركته الامبراطورية القديمة والامبراطورية الحديثة من الآثار . غير أن في اسراتها مثل الاسرة الثانية عشرة التي اشتهرت بما خلفت من ابنية كبحيرة موريس وقصر التيه (لا بيرانت) وهما من الآثار المعجبة التي جعلت هيرودوت يفضلهما على الاهرام

ولكن ما بقي من الأثرين المذكورين قليــل فنحن نعجب بهما تصديقاً للمؤرخين الاغريق . ورواية هؤلاء المؤرخين لم تسلم من التجريح فان مسيو ماسپيرو لم يصدق بوجود بحيرة موريس، واكد انه لم يكن باقليم الفيوم من الأمكنة ما يصلح لذلك الخزان العظيم . على اننا لا نرى في اعتراض ماسپيرو وجاهة لأن غيره من المدققين لاحظ وجود مكان البحيرة وليس لدينا ما يدعونا الى الشك كله في رواية مؤرخي الاغريق وهم شهود رؤيه وقد وصفوا الخزان وقالوا انه كان بوسطه هرمان يعلوهما تمثال عظيم

والسبب في زوال آثار الامبراطورية الوسطى هم الهكسوس . فقد كان زمن اغارتهم وبخاصه أوائلها نكبة على منتجات العمارة المصرية . وجعل اولئك العلاظ

همهم في الأول تدمير روائع الفن ، فلما تحضروا بعد ذلك وطمحت نفوسهم الى تخليد ذكرهم بالأبنية الخالدة لم يصلوا الاّ الى اقامة آثار خالية من كل منفعة

واذا ندر امامنا وجود بقايا المعابد والقبور التي يرد عهدها الى ذلك العهد فانا مع ذلك نستطيع أن نتابع تطورات فن العمارة في تلك العصور الانتقالية

امتزجت المصطبة بالاهرام في أوائل عهد الامبراطورية الوسطى ولكن حل محل القبر الموجود على سطح الارض قبر تحتها . فبينا ابتدأت الشعوب الاخرى بنحت البيوت والمعابد والقبور في الصخر واتخاذ الكهوف الصناعية . ابتدأ المصريون بمنشآتهم في العراء ثم جعلوها في باطن الأرض .

وقبور بني حسن هي أهم مثل كامل من أجداث الامبراطورية الوسطى وهي عندنا أثمن من بحيرة موريس وقصر التيه لاننا وجدنا بها مئات من الالواح كانت تغطي بها حوائط هياكل القبور وفيها النقوش والتصاوير تمثل حياة مصر القديمة

ولم يتغير النظام الداخلي للقبر في آثار بني حسن الاّ قليلاً . فوجدنا بها الهيكل ونقوشه وكتاباته ومائدة القرابين والبئر المسورة العميقة المخيفة بها المومياكما في المصطبة .

ويفتح باب القبر في جنب الجبل على علو قليل حتى لا تطمره السوافي ويجعل بميل يستطيع معه أقارب الميت أن يدخلوه في زيارات الاعياد . ولما كان اتخاذ الباب بهذه الكيفية لا يؤمن معه أن تسرق تماثيل الميت اذا وسعت فتحة السرداب، فقد عدلوا عن وضع التماثيل في القبر ونحتوها في الصخر مقابل المدخل في الوجار الذي كان في المصطبة وجعلوا في كل قبر تمثال الرجل وزوجه نحتاً في الصخر .

والاهمية العظيمة لآثار بني حسن من وجهة رقي الفن ظهور الاعمدة الاولى على ضفاف النيل فهي أقدم الأعمدة المصرية بلا منازع ومن رأي شمبولبون انها ام الاعمدة الاغريقية التي ظهرت بعد ذلك .

وتعد هذه الاعمدة حلقة الاتصال أو خطوة الانتقال بين القائمة المربعة في عهد الامبراطورية القديمة والاعمدة الفاخرة التي وجدت بعد ذلك في أيام الاسرات الأخيرة .

ظهور الأجداث التي تحت الأرض والاعمدة يكفي في الدلالة على تطور فن العمارة في عهد الامبراطورية الوسطى واذا كانت منتجات هذه الامبراطورية أقل عظمة من منتجات عهد كيوبس ثم عهد رمسيس فلا شك في أنها تدل أيضاً على عبقرية وصبر، فكل من ينظر الى ما نقشه الناقشون تحت الثرى من تمثيل مظاهر الحياة المصرية بأكلها من المهد الى اللحد لا يأسف على تلك الأبنية العظيمة المقامة في وضح الشمس وتحت زرقة السماء . لقد يخيل الينا أن القوم لم يجدّوا وراء ما يبهر نظر الاحياء وانهم راموا بث الحياة في الاموات فنجحوا لأننا بهذه النقوش ذكرناهم ولا نزال نذكرهم كما كانوا في الحياة

(٤) العمارة في الامبراطورية الحديثة

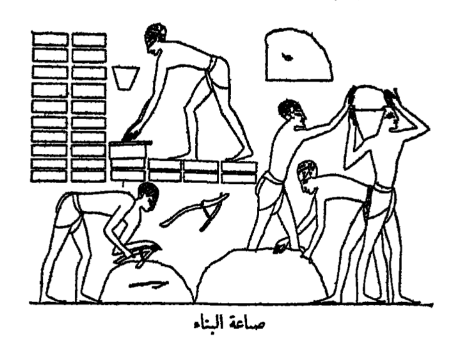
في عهد هذه الامبراطورية بلغ فن العمارة اوجه . وبخاصة في عهد الاسرة الثامنة عشرة التي رقي أوائل ملوكها إلى العرش قبل المسيح بثمانية عشر قرناً .

ومدينة طيبة هي مجلى ما وصلت اليه روعة الفن المصري فهي التي قال عنها شمپوليون « انني احذر أن أصفها لأن عبارتي تقصر عن وصفها كل القصور أو تبلغ ما أريده فيعدني الناس مجنوناً بها »

اذا كانت طيبة الدارسة التي دمرت كل التدمير تؤثر في رجل من رجال القرن التاسع عشر كل هذا التأثير بعد أن مرت بعينيه روائع ما أنتجه البشر فكيف يدهشنا ان هام بها شعراء العهد القديم وان اسمها رن على قيثارة هوميروس منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين

قال ديودور مردداً أغنية الالياذة :

« شيد بوزيريس تلك المدينة التي أسماها المصريون ديوسبوليس الكبرى وأطلق عليها الاغريق اسم طيبة وقد جعل محيطها ١٤ مرحلة وزينها تزييناً عجيباً بالابنية الكبرى والمعابد الجميلة وبالآثار فكانت منازل الناس ذات أربع أو خمس من الطبقات . وكانت أغنى بلد في العالم بأسره فذاع صيتها في كل مكان وتغنى بها



صناعة البناء

هوميروس اذ ذكر ان أبنيتها ممتلئة بالخيرات وان لها مئة باب يخرج من كل باب مئتا محارب بالخيل والمركبات . ولقد زعم بعضهم انها لم يكن لها مئة باب وانها سميت بهذا الاسم لكثرة ما بمعابدها العديدة من الابواب »

« ولم تقصر عمارة المدينة على بوزيريس لجميع من جاؤوا بعده تباروا في اكمل طيبة فازدادت عمارتها وزينتها وكثرت بها الانصاب العظيمة من الفضة والذهب والعاج والمسلات وشوهدت قبور الملوك القدماء التي لا يمكن للخاف أن يأتي بأجمل منها على الاطلاق »

هذا ما قاله ديودور ونذهب فيما نحن بشأنه فنقول ان القبور صارت في عهد الامبراطورية الحديثة جميعها تحت الارض وخصوصاً السراديب والكهوف أما الهيكل فقد فصل فصلاً تاماً ولم يحمل حتى بجانب القبر ولكن عمارة القبور والهياكل بلغت مبلغاً لا مزيد عليه .

في باطن التلال المحيطة بالمدن حفر المصريون بيوتهم الابدية ايام الامبراطورية الحديثة . وقد كان بطيبة حظيرة خاصة اوجدتها الطبيعة واقفلتها من كل ناحية سميت بوادي (بيبان الملوك) على الضفة اليسرى للنيل فاتخذت خاصة لدفن الملوك فاذا حكم الملك شرع في بناء قبره وتزيينه طول مدة حكمه ولكن انقلبت آية الاهرام فعمقت القبور في بطن الأرض وكثرت حجراتها واستطالت ممراتها فشابهت القصور

وغطيت حوائطها جميعاً بالنقوش البارزة والتصاوير البالغة حد الاتقان أكثر مما كان على عهد الامبراطورية الوسطى

ولم يبق من هم المصريين تصوير حيـاة المتوفي وانتصاراته واعماله فحسب بل ترقى القوم في التصور الروحي ولم يكتفوا بالحياة المادية وتوفيرها للصنو فزادوا عليها تتبع الروح في مراحلها بالاقاليم الخفيـة او السموية وأبانوا محن الحياة المستقبلة والصراع بين الاعداء هناك والروح وغلبة المتوفي في النهاية ثم مثول الروح امام محكمة اوزيريس . وارفقوا التصاوير بكتابات طويلة وبفصول تامة من كتاب الموتى فلم يتركوا موضعاً عارياً في الحجر من الكتابات والنقوش حتى ولا الناووس نفسه وافتنوا في الاتقان كل الافتنان

ولم يطلب المصريون بهذا غاية فنية وانما أرادوا جرياً على اعتقادهم في القوة السحرية أن يصوروا الحوادث وأن يظهروا الميت بمظهر المنتصر المبرور العمـل ليتحقق له النصر الفعلي في الحياة المقبلة والاّ فلماذا كل هذا الفن الرائع في جوف الثرى ....

وكانوا اذا وضعوا الميت في قبره أقفلوه اقفـالاً تاماً فلا يدخله حي بعد ذلك لان الهيكل القديم لا وجود له في القبر الجديد . بل كثيراً ما كانت تنسى فتحة القبر فلا يعثر بها المنقبون الاّ اتفاقاً اذا أرادوا فتح قبر آخر

ولقد سمى الاغريق هذه القبور (سيرنج) بسبب ضيقها وطولها كأنها أنبوب مزمار ولا صلة قط بين هذه القبور وبين المصاطب ولكن المبدأ واحد وكيفية الوضع واحدة وكذلك بقيت أفكار مصر في الموت والحياة المقبلة لم تتغير . وبقي الحرص على الموميا هو هو لأن القبور الجديدة لم تخل من وسائل تضليل الطالب اذا أراد موميا اصحابها ولم تتغير هذه الوسائل عما كان في الاهرام ومن رأي مارييت باشا أن بمصر من الموميات ما لا يستطاع الوصول اليه مهما جد الحرص بالباحثين

وخير الامثلة على قبور الامبراطورية الحديثة قبرا سيتي ورمسيس ولكن أين ذهبت هيا كل القبور بالتحقيق .

اننا نرى نظرية لا بأس من ايرادها هنا في هذا الصدد فنقول :

كانت طيبة ممتلئة بالمعابد العجيبة . وأهم هذه المعابد قد خص بالآله الاكبر المعبود في مصر برمتها ولكن بتفضيل طيبة على ما سواها من الاقطار . ونعني بالآله المذكور امون

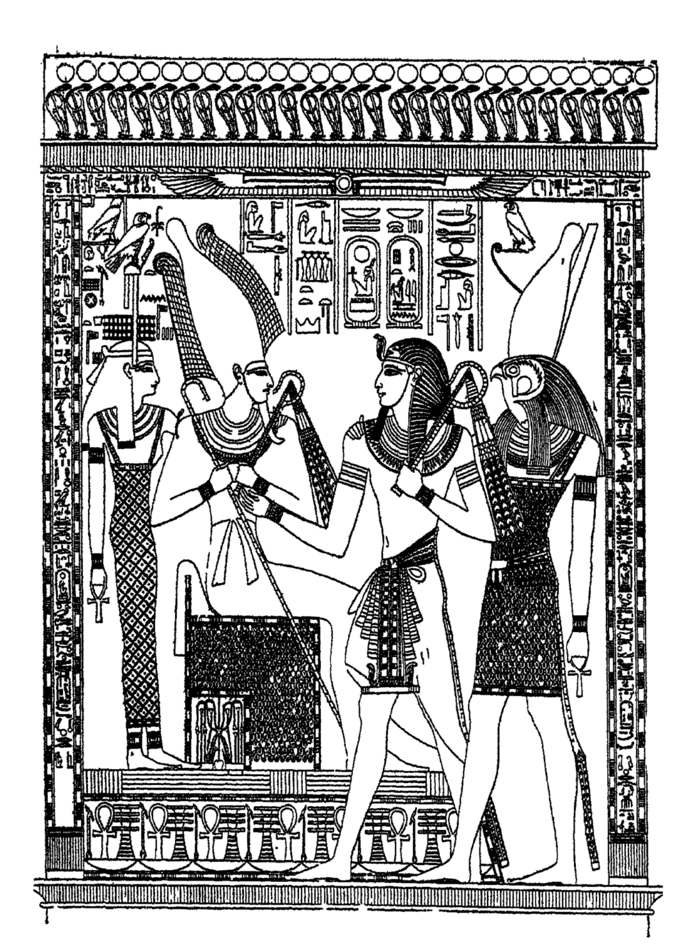
وآمون أو رع . وقد يجمعون بين اللفظين فيقولون امون رع . مختلط بالشمس وليس أرفع منه في السماء وعلى الأرض وليس أجل من جلالة فرعون . لهذا نرى الآله والملك معاً في نقوش المعابد . ورمزهما المضاعف نعني الشمس مجنحة مضمومة الى هوروس فوق ابوابها

و بينا نرى الملوك في المعابد الكبرى بالكرنك والاقصر ماثلين في العبادة امام آمون . اذا بنا نرى في بعض حوائط المعابد الصغيرة صور الفراعنة ولها الصف الاول حتى قبل الآلهة . بل نراها تتقبل العبادة ولها اختصاصات الآلهة

من هنا نستنتج ان كل معبد من هذه المعابد كان قد بني لتخليد ذكرى الفرعون ثم اعتبر كهيكل تذكاري يقصد اليه الشعب في الأعياد للاحتفال بذكرى الملك المتوفي فقام مقام الهيكل القديم وازداد سعة على توالي الايام لازدياد العناية بعمارة القبور

وجميع الهياكل التي للموتى منتشرة على الضفة اليسرى للنيل على أبعاد تكاد تكون متساوية من وادي الملوك حيث قبور الفراعنة وكل هيكل لواحد او اثنين منهم على الاكثر مثل هيكل القرنه فانه لرمسيس الثاني وولده سيتي الثاني . وأقدم منه هيكل الدير البحري انتته الملكة حاتاسو . وهيكل رمسيس لرمسيس الكبير ومدينـــة ابو لرمسيس الثالث . وهيكل امينوفيس لامينوفيس الثالث ولم يبق من هذا الاخير غير أثرين عظيمين يمثلان الملك المذكور يشرف على الفيضان

ومن أجمل الهياكل الملكية هيكل رمسيس فعلى حوائطه اناشيد كاملة من قصيدة بنتاؤور بجانب النقوش والصور البارزة المنوهة بانتصارات رمسيس الثاني (سيزوستريس) وقد وصف كل ذلك ديودور الصقلي ومن وصفه تأكد أن الهياكل للموتى كما اسلفنا



الملك يتقبل العبادة

أما ما على الضفة اليمنى للنيل من المعابد كمعابد الكرنك الثلاثة لآلهة طيبة الثلاثة امون وموت وخونسو ثم معبد امون بالاقصر فقد خصصت للآلهة فلم تصور بها الملوك الاّ عبدة ووسطاء بين الناس والآلهة او بين الأرض والسماء .

وبدهي أن ما ذكرناه عن الهياكل لا يطبق الاّ على قبور الملوك اما قبور العامة فساذجة لا تتألف الاَّ من اخدود على عمق امتار ينزلون فيه النعش ويغطون بالأحجار .

ان اهم آثار الأمبراطورية الحديثة مالا يزال قائماً بالكرنك والاقصر ولا يمكن أن يشبهها شيء من أثار العالم بعد إلا آثار الهند العجيبة . ودرة الآثار المصرية معبد آمون بالكرنك ففيه القاعة الكبرى التي انتهت فيها بدائع فن العمارة المصرية وليس وصفها بالسهل فالألفاظ تعجزعن وصف ما تحدثه في النفس من الأثر

قال عنها مسيو (امپير) المشهور « تصور غاباً من الأبراج أو تمثل ١٣٤ عموداً متساوية في الضخامة بعمود (ڤندوم) ارفعها على علو ٧٠ قدماً في محيط احد عشر قدماً وقد غطيت كلها بالنقوش البارزة الهيروغليفية . وتصور رؤوس الأعمدة ومحيط كل منها ٦٥ قدماً وطول القاعة ٣١٩ قدماً كأنها قاعة كنيسة القديس بطرس بروما فى اكثر من ١٥٠ قدماً عرضاً . ثم اعلم أن الزمن بل الذين أغاروا على مصر وخربوها لم يفعلوا بهذه الآثار أي شيء فبقيت كما كانت منذ آلاف من السنين زاهرة كعهدها فى زمن رمسيس حتى لقد عجزت قوى الطبيعة المخربة عن هدمها جميعاً فأسقط الزلزال بعض المعبد ولكنه لم يفعل شيئاً بالأعمدة وان أمال أحدها عن موضعه فبقي قائماً في ميله تحت ثقل ما فوقه من البناء . وقد كانت القاعة مسقوفة والظاهر انها كانت للاجتماعات الكبرى مثل تأبين الملوك »

ومميزات جميع معابد الامبراطورية الحديثة واحدة مهما اختلفت أحجامها فمدر على جانبيه تماثيل أبي الهول وفى الطرفين مسلتان تتقدمان واجهة الباب الأثرى . ثم يدخل منه الانسان الى فناء يحوطه ما يشبه العقود وفي طرف الفناء قاعة ثم المعبد ذاته تحوطه الحجرات ويبنى المعبد نفسه بالحجر ومن حوله حائط غاية في العلو والضخامة يبنى باللبنات النيئة .

وقد تزداد هذه الأجزاء في الضخامة أو تتعدد كأن نرى باب المدخل مزدوجاً كأن نرى ممرا آخر على جانبيه تماثيل أبي الهول . وكأن نرى بحيرات مقدسة أو حجرات كثيرة فيها ثمين ملابس الكهنة والأشياء المقدسة وكنز المعبد . ويحيط بالمعابد حائط خارجي ليس عليه أي زينة

والنور بالمعابد المصرية قليل تتزايد قلته كلما أمعن المرء في داخلها والمراد بذلك الاحتفاظ بالتماثيل النفيسة للآلهة من الغبار والحشرات . ولا تقام حفلات قط في الأجزاء الداخلية من المعابد وانما يجيء الكاهن الاكبر للصلاة . أما الناووس أو الوجار المقدس المتضمن الصورة الالهية فلفرعون وحده الحق في فتحه ومواجهة الآله. وللناس بعد ذلك غشيان الافنية والدخول بين الأعمدة وهم بزينتهم الكاملة

وللامبراطورية الحديثة نوع آخر من المعابد تحت الأرض اما محفورة في الصخر واما في أحضان الجبل وأهمها معبد أبي سنبل بعجائبه المنحوتة في الصخر

وبعد الأسرة التاسعة عشرة وقف فن العمارة المصرية ولكنها جاءت بآثار تضاهي الآثار التي تقدمتها فالأسرة السادسة والعشرون التي أسقطها الفرس زادت في زينة مدن الدلتا وخصوصاً على عهد أمازيس الذي شيد بسايس معبد مينرفا وهو بناء خليق بالاعجاب جلبت له المواد من محاجر ممفيس ومن مدينة الفيلة وفي بعض هذه المواد ما قضى الفان من أصحاب السفن ثلاث سنوات في حمله

واشتهر البطالسه أيضاً بالبناء واستمر المصريون ينبون حتى زمن الاشراف الروماني وعلى أبنيتهم طابع عبقريتهم لم يؤثر فيه ثقل النير الأجنبي حتى ليقال ان الفاتحين غللوا استقلال مصر ولكن لم ينجح أحد منهم في استعباد فكرتها

الفصل العاشر

(٥) الحفر

من سبعة آلاف من السنين كان العالم في وحشية مطلقة الا وادي النيل فقد كان فن الحفر فيه نهاية في الاتقان فجاء بالمعجزات الدالة على تفوق الحضارة المصرية لأن الفرق شاسع بين الانسان الساذج الفطري والانسان المتفنن الذي يصنع من الحجر مثل كاتب الملك وقد سبقت رؤية صورته قبل هذا الكلام

وأقدم التماثيل التي عرفها العالم موجودة في مدخل متحف اللوفر المؤدي الى القسم المصري وهي تمثل موظفاً مصرياً يدعى سيبا وامرأته واسمها تيزا والتمثالان من الحجر الطفلي وأسلوبهما ساذج ولكن التفصيلات فيهما غاية في الدقة والتأثير ويرد عهدهما الى ٦٠ قرناً

وكانت محاكاة الشبه هي الغرض الأول من التماثيل تنفيذاً للمعتقد الديني القاضي بمحاكاة الميت تمام المحاكاة ودام هذا طول مدة الامبراطورية القديمة حتى ان العاهات نفسها كانت تمثل في التمثال والدليل على ذلك تمثال القزم المسمى نم — حوتب وقد وجد في قبر فاخر بشعاره ووضع في المتحف المصري وهو غاية في تمثيل تفصيلات الاقزام . وعلى هذا نقول ان الحفار المصري كان يأتم بالطبيعة ويحاكيها ولا يحيد عنها ولا يهتم بتصوير الجمال قط اهتمامه بمحاكاة الحقيقة من غير تصرف ولا تعمل ليضع ما ينحته في سرداب الميت فينفع صنوه كما بينا من قبل وغير مهم بعد ذلك أن يذكر الصانع للتمثال أو يذاع اسمه على نحو ما يتوخاه متفننو العصر الحاضر

لم يكن الصانع يضع اسمه على أسفل المنحوت ولم يكن يحلم بالشهرة والمجد ولكن

صانع مصر مع ذلك لم يجر النسيان عليه ذيله فقمنا الآن نعجب بفنه الحقيقي الخالد المودع في الغرانيت والطفل والخشب كما شاهدناه

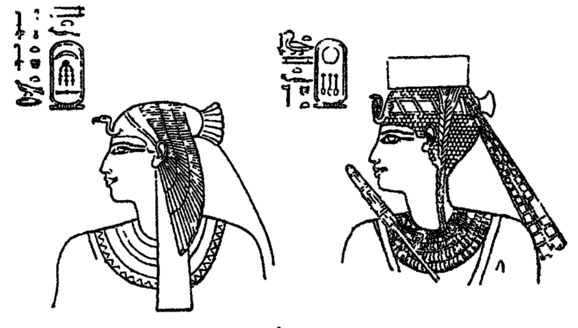


لسنا ننسى تمثال الكاتب أو شيخ البلد أو راحوتب ونيفرت ومن ذا الذي ينظر الى هذه التماثيل وينسى معالمها ومعارفها

وقد امتاز الحفر في الامبراطورية القديمة بعد المحاكاة بضبط أعضاء الجسم ونتوء العورات . ورائعة الفن في عصر هذه الامبراطورية تمثال الملك خفرن وقد وجد في بئر بمعبد أبي الهول وهو من مادة أقسى وأصعب في النحت من الغرانيت . وقد مثل التمثال فرعون جالساً ويداه على ركبتيه في وضع ملؤه الهدوء والجلال ولكن الحجم اكبر من الحجم الطبيعي

والنقوش البارزه بمصر أحدث عهداً من التماثيل . وأقدم ما عرف من هذه النقوش ما وجد على صخور وادي مغاره في شبه جزيرة سينا وقد لعبت به أيدي الزمن وكان يمثل الملك سينفرو يصرع عدواً له . فتاريخ النقش اذاً يرجع الى الأسرة الثالثة

وهناك نقش بارز على الخشب في قبر حوسي لا تقل أقدميته عن نقوش سينا ويمتاز باظهار الاكتاف مواجهة أما الرأس والسيقان فممثلان بالجنب



(صورتا رأسين)

واستعملت الامبراطورية القديمة الخشب في أعمال الحفر الكبيرة وذلك لندورة الفولاذ والحديد في الاستعمال ولا يخفى ان الخشب يعبش في جو مصر كثيراً مثل الحجر . ثم ارتقى فن الحفر بعد ذلك وصار من فنون الزينة ولم يجد المصريون كتلاً عظيمة من الخشب اصنع التماثيل بقدودها الطبيعية فما عندنا منها مركب من عدة

قطع مجتمعة يخفي الصانع لحامها بقماش مصمغ يبسط عليه اللون فكل ما صنع المصريون من التماثيل أوالنقوش البارزة من الخشب طلوه بلا استثناء

ولم تعرف مصر الرخام على أنه أكبر ممثل للحم البشري . غير أنها اصطنعت البرونز وافتنَّت في صناعته افتتاناً لم تلحقها فيه الأمم الا بعد بكثير

وأغرمت مصر بكل عظيم وأكبر مثل على ما نحتت في العظم والضخامة « أبو الهول » المطمر اليوم بعضه في الرمل . وانتهى بانتهاء الامبراطورية القديمة من فن الحفر محاكاة الحقيقة والحياة . واذا تكلمنا عن روح الحفر في مصر لقلنا كما قلنا في باب الأدب ان مصر نقصتها مزايا التأثير كالحب والألم فيما صنعت كما نقصها الشك والقلق والتساؤل عن مستقبل مصير الانسانيـة وما كان رائدها الا العظمة والرزانة وطلب الخلود ففي هـذه فقط مميزات الفن المصري بكافة فروعه ولا عبرة بعد ذلك بالوقتي الفاني والحياة الأرضية

ولقد حدث تغيير عظيم في الدين والفن بمصر بين عهدي الأسرتين السادسـة والثانية عشرة ولـكننا لم نعرف من الآثار كيفية حدوث هذا التطور وانما عرفنا نتائجه في الحفر فقد تغير الأسلوب ونحا نحو الرقة وخرج عن الشخصية القديمة وخصوصاً في الجسم من دون الرأس وجعل النحاتون همهم في العمل للأثر لا للقبور ، وللزينة لا للدين ولتمجيد الملوك والآلهة لا لتوفير الحياة للصنو المعروف

ولم يبق لنا الا الـكثير من تماثيل الامبراطورية الوسطى اللهم الا تمثـال سفك حوتب وهو تمثـال جميل لأبي الهول من الغرانيت الوردي موجود في اللوفر ويرد عهده الى الأسرة الثالثة عشرة . وما ملك الهـكسوس وجعلوا عاصمتهم في تنيس حتى ملئوها بالتماثيل ولـكنها تختلف عن تماثيل فراعنة مصر فذوقها آسيوي . أو مصري لم يوجه الا لتمجيد الفاتحين . ولم يفصل علماء الآثار الى عهدي في مبلغ تأثير الأجانب في الفن المصري وانما يقال ان فن النحت بلغ أوجه على عهد الأسرات الثلاث الأولى في الامبراطورية الحديثة وأن النقش البارز انما صار الى غاية تخليـد فعال الملوك في الانتصارات فيصور الملك وهو حامل في مركبته الحربية على الأعداء ثم وهو قد أحرز الفوز واقتيدت اليـه الاسرى فجعل يبيدها تقتيلاً . وصورت النقوش أيضاً بعض

المآدب وما يجري فيها من القصف والغناء والرقص ولعب الشطرنج وتقديم الزهر والفاكهة غير أن المقول بالاجمال ان هذا النقش البارز ابتعد عن تصوير الحقيقة في عهد الامبراطورية الحديثة وطلب الجمال والدليل صورة الجواد فالجياد لم تدخل مصر الاّ في عهد هذه الامبراطورية ومع هذا فصورها في النقوش البارزة لا تضاهي في محاكاة الحقيقة صور الحمر والثيران والاعنز والطيور التي صورت على عهد الامبراطورية القديمة . ومميزات النقوش البارزة المصرية انها ترى الرأس والسيقان من الجنب أما العيون والاكتاف فترى من الامام وعلو الصورة دليل على علو مكانة صاحبها والآلهة اطول من الملوك والكهنة ورجال الحرب أقصر من الملوك . وابتدأ انحطاط الفن من بعد رمسيس الثاني . ثم تطور صعداً على عهد الاسرات الصائية وبذل الجهد في الرجوع الى الطبيعة ولكن لم يدم هذا طويلاً ثم كانت ضربة طيودوس فكان فيها القضاء النهائي على الفنون بوادي النيل .

يرى القارىء من جميع ما مر أن ازدهار فن النحت انما كان على عهد الامبراطورية القديمة ولربما نعثر بالتنقيب على روائع لهذا الفن لا تزال تحت الرغام.[1]

(٢) النقش

كان للون المقام الأول في الفن المصري . فمصر لم تفتن في النقش الحقيقي المقصود بهذه اللفظة الآن افتتانها بالتلوين الذي وصل الى عهدنا ولم ينصل كأنه مما صنع بالامس . ويتوخى الملون المصري الانسجام في تأليف الالوان ولكنه لا يعطي الاشياء الوانها الحقيقية ولا يهتم بالضياء الطبيعي والظل وصياغة الشكل على نحو ما نعمل اليوم بل يطلي طلاء متقنًا باللون المراد . فاذا كان المراد طلاء جسم انسان عار مثلاً اختار له اللون الاحمر أو الاسمر واذا كان جسم امرأة طلاه بالاصفر

---

(١) المترجم —. نعم عثرنا على بدائع وروائع كانت تحت الرغام في قبر توت عنخ آمون واذا ماصدر الكتاب وتناوله القراء افردنا لهذا البحث فصلا فى الجريدة التى نحرر بها (البلاغ) ربما كان به خلاصة ماقيل حتى ساعة الكتابة فى شأن حضارة ذلك العهد فقد حرصنا على كل ماكتب في الموضوع ولم يبق الا ان نحصه ونسنا ندلى بشيء من الرأي الذاتي عليه .

الشاحب واتبع القواعد المرعية . ومن طلاء صور الاسلحة باللون الازرق عرفنا ان مصر استعملت الحديد والفولاذ .

ولا تزال اطلية اثار بني حسن باقية الى يومنا هذا وهي تدلنا على انفصال الحفر عن النقش او التلوين فالراسم المصري يرسم الشكل ويحفره ويطليه غيره . ومن ميزات للتصوير أن الملوك كانت لا ترسم بعد الامبراطورية القديمة إلاّ في صورة الشباب بعيون كبيرة حالمة وانف اقني وشفاه على شيء من الغلظ ولا يفارقها الابتسام

(٣) الفنون الصناعية

حب المصريين في نقاوة الشكل وحسنه جعلهم يعنون بكل ما يصنعون ولو كان لتافه الاستعمال حتى لقد يصح أن يطلق على مصنوعاتهم انها من منتجات الفنون الجميلة

قلنا ان المصريين كانوا مهرة بالرسم والعمارة ونقول ان هذه المهارة تمشت الى مصنوعاتهم في الدمى والحلي وطبعت بطابع عبقريتهم الخاصة التي ميزت رسومهم وعمائرهم .

عالج المصريون المعادن واذابوا البرونز من عهد الامبراطورية القديمة واوجدوا منه مخلوطاً مسقياً ضاهى الحديد في الصلابة وكان صبرهم على العمل مما لا يكاد يحلم به الانسان والاّ لما وصلوا الى نحت الغرانيت والصوان ولما صنعوا منها التماثيل وان كانوا لم يفصلوا اعضاءها عن الجثمان

واشتغل المصريون المعادن النفيسة كالذهب والفضة ومخلوطهما وطعموا مصنوعاتهم ورصعوها وصنعوا الميناء وهي الزجاج الملون وكان لهم به الشغف الشديد فجعلوه في الآنية والتماثيل الصغيرة والاثاث والحوائط والقبور وأرض الغرف والحجر واللبنات حتى على عهد بناء اهرام سقارة . وفي معابد مصر معبد رمسيس الثالث بتل اليهودي وهو مغطى كله بالميناء المؤلفة الألوان

واتخذ المصريون الزجاج واستعملوه في كثير من الشؤون من أقدم العصور واشتغلوا الخشب والعاج والقرن والبلور وصنعوا الآلاف المؤلفة التي وصلت الينا

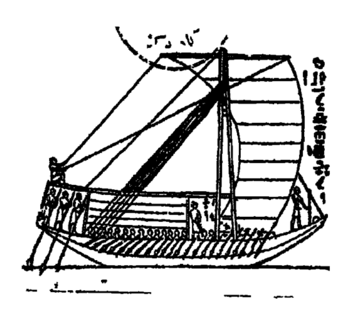
من الاشياء الصغيرة متعددة الاشكال والالوان فمن مكاحل الى قوارير الى أوان الى دمى الى لعب تزين بها الدور ومن تمثيل الحياة للموتى في قبورهم الى صور صغيرة للآلهة ورؤوس الحيوانات .

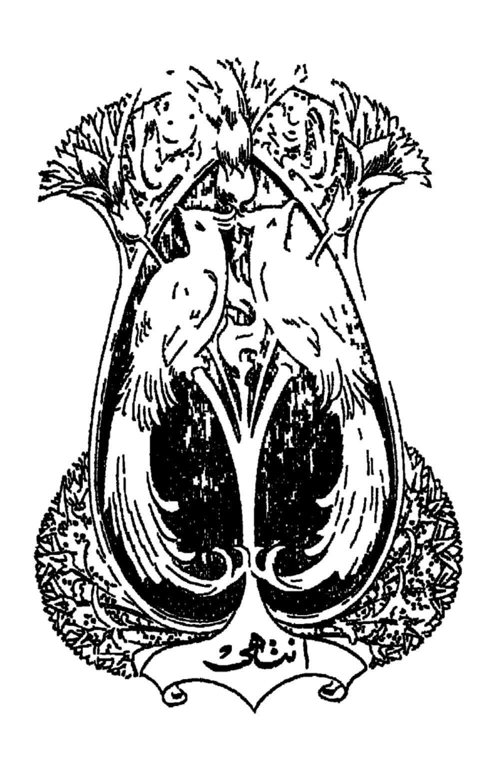
واغرم المصريون أيضاً بالاستكثار من الاثاث والحلى والنوم على السرر والجلوس على المقاعد الثمينة شكلها كاشكال الحيوانات أو النباتات . ولا ننسى قماش مصر ومطرزاتها وكتانها المعروف الذي ذكر حتى في عهد حزقيال .

ومن يدقق النظر في جميع ما مر به يعترف معنا بأن الشعب المصري عرف كيف يجعل حياته شعرية وكيف يحتمل الموت .

لترقد تلك المومياءات في نفوسها مطمئنة فان عصرنا الحاضر قد حقق أمانيها في المستقبل فكأنها وكأن اصحابها احياء الآن بعد الذي عرفناه عنها وعلمناه

ان العلم أخذ يلحق الحاضر بالماضي ويدلنا على مقدار اثر افكار الشعوب التي مضت في شعوب اليوم فاذا كان لنا غرورنا فقد كان للاقدمين غرورهم . وما أقل الحقائق الأبدية التي كشفت للعقل الانساني الى الآن ؟





انتہی

القاموس العصري

انكليزي وعربي – مصور

تأليف

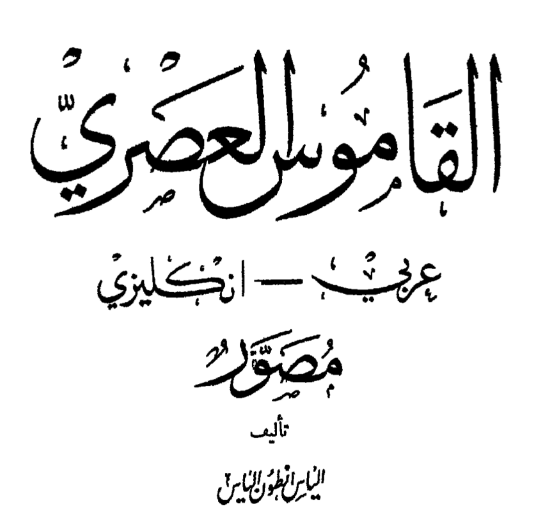
الياس انطون الياس

ان جميع المعاجم الانكليزية عربيـة التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يُفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منـه مطلقاً للطالب الشرقي .
واول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو القاموس العصري

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه الآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه الفائدة العظيمة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى . ثمنه سبعون قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .



هو معجم لم يُنسح على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزيه . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانكليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألزم لك من أي كتاب آخر ما دمت من المشتغلين باللغة الانكليزيه —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزيه . وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها التانويه في القطر المصري . وثمنه مائة قرش والبريد خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

هذا مثال من

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

Accessorial — 3 — Acetify

Accessorial اشتراكيّ اضافيّ مُلحَق	Call to —, ناقش الحساب حاسب
Accessory اضافيّ مُلحق مُساعِد	Of no —, طفيف قليل الاهمية
Accident طارئ عَرَض صُدفة	Take into —, راعى حسب حساب
Accidental عَرَضيّ * اتفاقي طارئ	Accountability مسئولية مُطالبة
Acclaim صفّق استحساناً ‖ هلّل	Accountable مسئول مُطالب محاسب
Acclamation تهليل هتاف الاستحسان	Accountant كاتب حسابات [محاسب]
Acclamatory مُفرِح * هتافي استحساني	Accoutre سلّح جهّز بالسلاح
Acclimatise عوّد على طقس المنطقة	Accoutrements اسلحة عُدّة الحرب
Acclivity طلعة مُصعد مُرتقى عقبة	Accredit فوّض الى . عيّن
Accommodate اعدّ * اراح * وفّق بين	Accretion ازدياد نموّ تكاثر
Accommodation ملاءمة * تسوية	Accrual تجمّع تراكم * ازدياد نموّ
Accompaniment مُرافقة مُصاحبة	Accrue رابح عاد * ارتفع كثر
Accompany رافق * لازم * جارى	Accubation اضطجاع * ولادة
Accomplice شريك في الاساءة او الجريمة	Accumulate جمّع * تجمّع ركم
Accomplish انجز اكمل اتمّ انهى	Accumulation اجتماع تجمّع ازدياد
Accomplished كامل تامّ * مهذّب	Accumulator جامع * جامعة الكهرباء
Accord قبول * اتفاق مُطابقة	Accuracy ضبط اتقان دقة
Accord v. وفّق سوّى * طابق	Accurate مضبوط مُتقن دقيق
Accordance وفق موافقة مطابقة	Accurse لعن شتم حرّم دعا على
According to بحسب طبقاً لـ بالنظر	Accursed ملعون مغضوب عليه
Accordion آلة موسيقية كالارغن	Accusant مشتكٍ مُقدّم الشكوى
Accost دنا اقترب من * بادأ بالكلام	Accusation شكوى شكاية تهمة
Accostable سهل الوصول او الاقتراب	Accuse شكا اتّهم ب ادّعى على
Accouchement نفاس ولادة	Accused متّهم مدّعى عليه (جنائياً)
Accoucheur طبيب مولّد قابل	Accustom عوّد مرّن درّب على
Accoucheuse مولّدة . [داية] قابلة	Accustomed مُعوّد مُمرّن مُتدرّب
Account محاسبة * بيان تقرير * اهمية	Acerbity حموضة * فظاظة . شكاسة
Account حسب * علّل بيّن السبب	Acetify حمّض خلّل

(ثمنه عشرون قرشاً والبريد ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج)

وفي شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ سيظهر صنوه العربي انكليزي وسيكون ثمنه خمسة وعشرون قرشاً فقط

قاموس عربي وانكليزي

للغة المصرية الدارجة

تأليف

سقراط سبيرو بك

قد جمع هـذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل واصطلاحات اللغـة المصرية الدارجة في الكلام والكتابة . ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من أبناء مصر خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه مايه قرش صاغ والبريد خمسة قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج ويطلب في جميع المكاتب ومن ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر







حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها

هلمَّ بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة الاجتماعية ، الاسرار العجيبة الغريبة

ترى اممًا عظيمةً راقية متمدِّنةً حيوية ، تضرب في طول الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوبًا متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى جماعات همجية متوحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سرّ تفاوتها في الرقيّ ؟ ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوّنت الجماعات والشعوب والأمم ، وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجًا متحمسًا متهوّسًا ، ثم ترى جماعات هادئة عاملة ، ثم ترى ناسًا في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ، فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تتعاقب ، وعادات تتوالى ، وتقاليد تُتوارَث ، ورأيًا عامًا يسود ، وقوانين تتقرّر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتثير الجماعات ثم تسكنها، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات

تُرى اممًا ترقى واخرى تنحط ، وُاممًا تنمو وتعظم واممًا تتلاشى وتنقرض ، واممًا تستعمر وتستعبد واممًا تُستَرَق وتعمــل لغيرها . ثم ترى عقولاً تخترع وعقولاً توسّع العرفان والعلم وعقولاً تصنع وتعمل . ثم ترى قوات الطبيعة تتساقط تحت قدمي الانسان الواحدة تحت الاخرى وهو يسخرها لخدمته ، فيستطيع بها أن ينشر أفكاره في لحظات حول الكرة الأرضية ، وينتقل من مكان الى مكان بأسرع ما يمكن ويغير طبيعة الاقليم بحيث تسهل المعيشة له في كل اقليم بين هجير خط الاستواء وزمهرير القطب . فما هي القوات الاجتماعية التي تقلب سطح الكرة الأرضية رأساً على عقب ؟

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ، والذوق الجميــل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك وفي وسعها أن تقول للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوُّن والنشوء ، وعلم العواطف المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرّب للعواطف ، وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدنية الى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار الهيئة الاجتماعيــة حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا هو العلم الذي بسطه الاستاذ نقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صدده بسطًا يدع كل قارىء يفهمه بكل سهولة

فهذا الكتاب الذي يصدر في آخر صيف سنة ١٩٢٤ هو الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر لك ببال من هــذا القبيل . أفلا تشعر أنه يجب أن تطالعه وأن يكون في مكتبتك لـكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف منزلتك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟ وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

ثمنه ٢٠ قرشًا ، ويُباع في جميع المكاتب

أو يُطلب من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس ، صاحب المطبعة العصرية — بشارع علوي — بمصر


المطبعة العصرية
لصاحبها الياس انطون الياس
تليفون ٢٠-٥٦٠ مصر